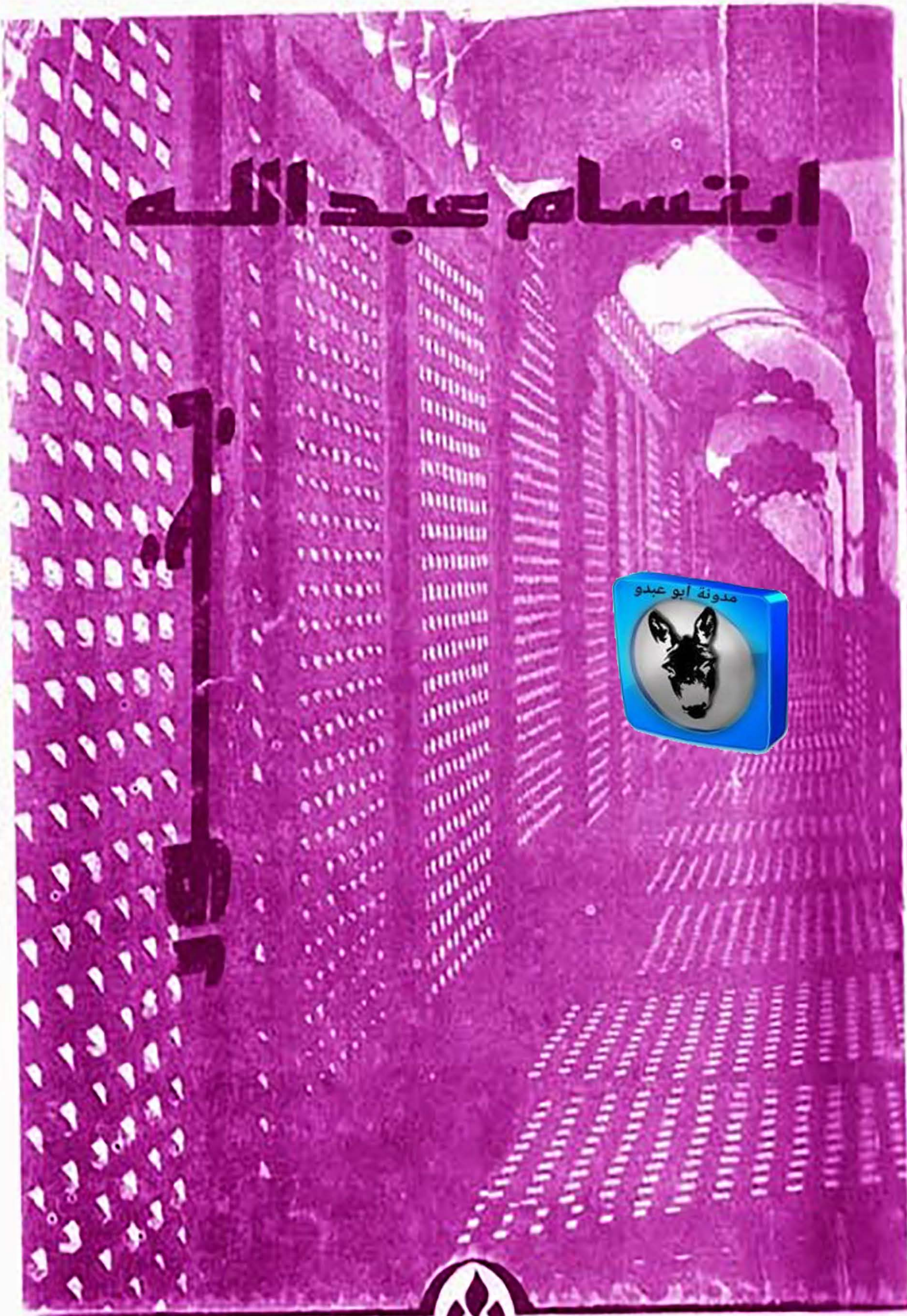
ابتسام عبدالله



دار الشؤون الثقافية العامة

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات
العنوان : العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص.ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

« بخـــور »

قصص

ابتسام عبد الله

بغـداد / الطبعة الاولى / ١٩٩٨

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافيـة العامة
بغداد ـ ١٩٩٨

٨١٣٫٩٢
أ ٢٢٥ ابتسام عبدالله

بخــور : قصص / ابتسام عبدالله ــ
ط ١ ــ بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ،
١٩٩٨
ص١٥٦ ، ٢٤سم
١ ــ القصص العربية ــ العراق أ ــ العنوان
م ٠ و
٨٤ / ١٩٩٨

الفهرســة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٨٤) لسنة ١٩٩٨

الصمت المفتوح والصوت المغلق

ـ قراءة دلاليَة في قصص ابتسام عبدالله ـ

د. محمد صابر عبيد

مدخل :

تمدّ القصة من اكثر المجالات الحيوية فعّالية في السلوك و لاداء البشري ، لهذا اكتسب كل هذا الحضور وبقيت رائقة لأكثر الأنجازات عظمة فى تاريخ الانسان • فللظاهرة القصصية « بعد أساسي لا فى الأدب فقط ، بل حتى فى حياة البشر وعلاقاتهم ان حياة البشر قصة مسترسلة وعلاقاتهم محبوكة من قصص وخيالهم من قصص ، وعقائدهم من قصص ، وقد أدركت الأديان السماوية القيمة الجوهرية للقصة فى الكيان الانساني فوردت كتبها فى صبغة قصصية »[1] •

والحرب واحدة من أكثر التجارب عمقا وخطورة وتأثيرا ، وهي بحد ذاتها قصة أو مجموعة متشابكة من القصص ، إلا أنّ وعيها وإمكانية تحويلها الى فن أدبي رفيع قد لايأتي عن طريق الاستجابة الفورية لحرارة الحدث ، إذ « كلما أوغلت الحرب فى الزمان الماضي ، أصبح بثها ، اقل دقــة فى التفصيل وأميل الى التأمل والخيال »[2] ذلك أن الحدث القصصي المستمد من الحرب

يحتاج الى زمن ليس قصيرا كي يتحول الى تجربة أدبية عميقة وثرّة . بمعنى « أن التجارب القصصية العميقة ستأتي لاحقا مع مضي الوقت وذلك بسبب تواتر التجربة فى حالة الحرب وانفعالها الى الادباء عبر طريق النقل الكثيرة كما ونوعا ، وذلك سيكون أكثر فعالية بعد انتهاء الحرب »[٣] ، لأن الفعل الأدبي يحتاج الى وعي فعل الحدث والتجربة وعيا مخلصا وشاملا من أجل ان لايتحول الى فعل تسجيلي وصفي مجرد ، فـ « كلما كان الوعي القصصي بالحالة الجديدة اكثر استيعابا ، كانت العلاقة بين القصة والواقع معبرة بعمق اكثر عن حركة الزمن »[٤] .

إلاّ أن تجربة الحرب العراقية ـ الايرانية ـ وبحكم استمرارها زمنا ليس قصيرا فى كل القياسات ـ سمحت للقصة العراقية أن تخرج « من رتابتها الطوعية ومارست إسهامها الطليعي المتميز فى أدب الحرب »[٥] ، واستطاعت أن تحقق إضافات جديدة الى جهد القاص الذي « بدأ يصوّر ويكتب عن انسان جديد ، نادر ، ليس سوبرمان ولا مستخذيا ولا فرديا ، بل انسان يتغير ويغير »[٦] ، بحسب متطلبات موقف الحرب من جهة وموقف الحياة من جهة أخرى

وشاءت هذه القراءة أن تتناول ثلاث قصص للقاصة العراقية ابتسام عبدالله ـ هي «جداول الصمت»[٧] و«فى المرآة»[٨] و«بخور»[٩]، كتبت جميعا بعد الحرب ـ تناولا دلاليا يكشف عن أهمية الوعي والتمثل والتأمل والخيال فى خلق انموذج قصصي جديد فى قصة الحرب .

المكان : بين الصمت العلني والصوت السرّي :

يوظف المكان في قصة « جداول الصمت » توظيفا توليديا يعمل على خلق معادلة تتبادل وظائف طرفيها « الصمت/ الصوت» بما يستجيب للقانون الفني الذي يحكم حركة القصة ، إذ يتحول المكان الى مساحة عمل لفعاليات متعدّدة لها وجهان ، وجه خارجي ووجه داخلي ، فالشهداء الاربعة وقد ضمتهم التوابيت هم مشاريع أحتمالية للانتماء الى شخص ما يبحث عن مفقود :

« كثيرون أتوا الى المكان . كهول وشبان ، رجال ونساء ، يسالون بأصوات متهدجة يغلفها اليأس عن اعزاء ضاعت آثارهم ، جاءوا ، يحفّ بهم خوف مبهم وتفرسوا في الأربعة وهزوا رؤوسهم غير مقتنعين بما رأوا ، ثم غادروا المكان وخيوط من فرح غير معلن بعد ، غير مؤكد بعد ، تتشكل على وجوههم الحزينة التي أضناها التعب والبكاء والقلق والسهر »(١٠) .

الصمت هنا سرّي ، مهيمن ، يبعث على اليأس والخوف ، يحاكي العالم الداخلي للباحثين « عن أعزاء ضاعت آثارهم » ، حتى الأصوات التي تخرج متهدجة على شكل أسئلة ، فانها اصوات تتمنى أن لا تخرج ، تحكم على نفسها بصمت باعث على الراحة لأنه يبقي احتمال كل شيء قائما .

ثم ما تلبث القصة أن تتحول من الصمت الخارجي الثقيل الى الصمت الداخلي الأبدي ، صمت الموت :

« الصمت الكثيف الذي يعمّ المكان منذ زمن ينكسر فجأة.
ـ ما الذي حدث ؟

تساءل أحدهم وأضاف .

ـ كثيرون مرّوا من أمامنا ، هزوا رؤوسهم فزعين وعبروا ، اترانا قد تغيرنا الى هذا الحد .

وقال الثاني ،

ـ كان من بينهم والدي ، ما ان فتح الغطاء الخشبي حتى كسا الوجوم وجهه ، تطلع فى وجهي برهة ثم أشاع الطرف عني. لم يعرفني ، صحت به ، لم يسمعني ، اردت أن اتشبث برقبته كما لو كنت صغيرا لكنني لم أقدر .

ـ إني سمعت صيحتك .

وقال الثالث ،

ـ سمعتها أنا أيضا . اما تدري أن أصواتنا تحولت الى جداول من صمت تسري فيها الكلمات بيسر ، نسمعها ، لكنهم لا يسمعون »(١١)

تستحضر الفكرة القصصية هنا حقيقة أن الشهداء أحياء ، وتوظفها فى سبيل خلق لغة جديدة داخل القصة تبعث أصواتا وحوارا داخل فضاء الصمت الخارجي .

فالحوار بين الشهداء الأربعة بعد أن يقوض الصمت الخارجي ـ وهو صوت مقفل منطلق الى الداخل ـ لا يمكنه الانفتاح على الخارج لأن عالمه داخلي خاص .

فالصمت الكثيف « الخارجي » يرتبط عبر هذا التحول في مسار العلاقة الداخلية بين الصمت والصوت بـ «لايسمعون» في حين يبقي الفعاليات الأخرى خارج هذه الدائرة .

وتتطور الفكرة القصصية في « جداول الصمت » من أجل ان تخرق عالمين متوازيين في مساحة الحدث القصصي :

« الأربعة أتعبهم الانتظار . تنحدر الكلمات بينهم همسا . يتبادلون الذكريات وعندما تنفد من خزائنهم يستعير واحدهم من الآخر مسرات أيام عتيقة ، خبت ألوانها حتى تبدو بعضها غارقة في عتمة غامضة لا حدود واضحة لها . أربعة صناديق خشبية مصفوفة جنب بعضها . لا ينسل منها صوت . فجداول الصمت فيها تجري على مهل . تغدو لغة سرية في التخاطب ، لا يقدر على سماعها أو فك رموزها أحد من البشر . كانت المدينة غارقة في الظلمة والليل فيها قد اشتد . بل كاد أن ينتصف ، ويدور متدحرجا نحو الغبش . لما انفجر صوت مخيف في سمائنا ، صوت

يهز الابواب والنوافذ ويقتلع عددا من الجدران والسقوف ويزرع الخوف في كلّ القلوب صغيرها وكبيرها »[١٢] .

العالم الأوّل هو عالم المدينة ـ المكان الصامت ـ ، والعالم الثاني هو العالم السري الذي يكوّنه الشهداء الأربعة وهم ينشئون « لغة سرّية » خاصة « لايقدر على سماعها او فك رموزها أحد من البشر » ، وهو عالم الصوت الداخلي المقفل .

انّ عالم اللغة السرية يعمل داخل عالم المدينة الصامت ، ويبعث فيه حركة غير « متصوّرة » ، الا ان هذا الحاجز بين العالمين ما يلبث أن يتحطم عندما يتدخل صوت الحرية « انفجر صوت مخيف في سمائها » ، ملغيا الحد الفاصل بين صمت الخارج وصوت الداخل . غير ان أستقلالية العالم الداخلي تفتح في المدينة الكبيرة مسالك لحركته :

« في المدينة الكبيرة يسير الأربعة جنبا الى جنب ، أذرعهم متشابكة وخطواتهم متشابهة وجداول الصمت النابعة منهم توحدهم في أغنية واحدة »[١٣] .

فالشهداء الأربعة بعد أن أخفق الجميع في التعرّف عليهم امتلكو أستقلاليتهم في الانتماء الى أنفسهم والى الشهادة ، وانتقلوا من موقع الصوت الثابت الى موقع الصوت المتحرك، صوت ينمو وتتسع مديات فعله الا أنه محكوم دائما بأنه يسري في « جداول

الصمت » بالنسبة للخارج ، بمعنى أن الصوت السرّي ما أن يلامس سطح الخارج الصامت حتى ينطفيء ، أو يضيع ، أو يرتد الى داخليته ودائرته المقفلة •

ومع ذلك فإنّ فكرة هيمنة لغة الشهداء السرية تبقى ضاغطة وفاعلة في مسار الحدث الداخلي للقصة مقارنة بمسار الحدث الخارجي لها :

« ومرة أخرى ينطلق هسيس الماء في جداول الصمت مكوّنا السؤال نفسه ،

ـ ما الذي حدث ؟

كل من في المدينة أغمض عينيه في هذه الساعة وغرق في نوم عميق »(١٤)

اذ يعود الراوي مرّة أخرى الى المقارنة بين المشهدين ، مشهد الخارج « المدينة » ، ومشهد الداخل « حركة الشهداء » من أجل الايحاء بموت الخارج وحياة الداخل •

انّ فكرة الشهداء أحياء تسيطر على سلوك القص وآفاقه ومقترحاته الميدانية ، وهي تقود الراوي دائما الى أن يخلع على المدينة كل سمات الموت والسكون والجمود في مقابل الفعل والحياة والحركة عند الشهداء الأربعة •

الصمت والصوت : تبادل المواقع

يتبادل الصمت والصوت موقعهما فى البنية الحكائية لقصة « فى المرآة » بطريقة يختلط فيها عملهما ووظيفتهما خدمة للفكرة القصصية التي تقدمها القصة :

« أنا وحدي .. وعليّ أن أبقى هكذا زمنا لا أعرفه ، زمنا استطيع تحمله ، فأنا فى الحقيقة ، عرفت على مرّ الاعوام ، كيف أمضي الوقت بل أقتله بالصمت ، انها حرفة تمرست عليها منذ ذهابه لى الحرب أو سوقه اليها . أصبحت وحيدة منذ ذلك اليوم . ساعات الصباح تمضي بسهولة لا أكاد أحس بها ، أما المساء والليل فهما شديدا الوطأة عليّ ، أنوء بأثقال الوحدة حتى يتهدل كتفاي وجفناي في آخر الليل وتنتشر خطوط قائمة على وجهي ويبرز أنفي بعد تخاذل الملامح وانهزامها الواحدة تلو الأخرى أمام ستار العتمة والصمت . عند ذلك فقط تبدأ عيناي بالانغلاق تدريجيا . انتهد مرتاحة وأنا أردّد مع نفسي للمرة الخمسين أو الستين أو المائة « ها قد أنقضى يوم طويل آخر ، وقد يكون الغد مختلفا »(١٥)

يسهم المونولوج الداخلي هنا فى خلق فضاء حكائي مفتوح على الداخل ، والمونولوج أصلا هو رحلة من ضيق الخارج الى سعة الداخل ، اذ يتحوّل الداخل الى عالم تتجمع فيه كل الرؤى والاحلام ، فبأمكان السارد فيه أن يبني ويؤسس ما يشاء بما يناسب أزمته فى الحدث القصصي .

انّ الشخصية الأولى فى قصة « فى المرآة » ـ الزوجة المنتظرة ـ تصارع على الدوام زمنها الخاص ، وهو زمن ثقيل مكرر رتيب مهيمن ، وتحاول اختراع أسلحة جديدة تقاوم بها سطوته وتكتشف سلاح الصمت « أقتله بالصمت » فقتل الزمن بالصمت هو تحرّر من السيطرة ، ثورة على الوحدة وانفتاح على زمن جديد .

انّ فكرة قتل الوقت بالصمت تنطوي على أفق دلالي واسع ، يتمثل فى قدرة الصمت على الاسهام فى خلق الموازنة الشخصية بين الواقع والحلم ، فالواقع الغارق في الانتظار والترقب والملل ، يكسره الصمت وينقله الى عالم الحلم والتأمل وخلق فضاءات حرّة تتجاوز ضيق ومحدودية الواقع .

ثم يبدأ الراوي بتأثيث عالم الصمت العميق / الذي أغرق فيه/ الهدوء التام » ، من أجل أن يكسبه خصوصياته وقدرته على الفعل والانجاز خارج امكانيات الواقع فى التضييق والحصار :

« الآن وأنا فى لجة الصمت العميق الذي أغرق فيه ، ومن خلال الهدوء التام الذي يحيطني ويسكنني بعد أن هدأت كل المشاعر والأحاسيس التي كانت تهيجني من قبل ، مثل بركان يظل يفور بما فى أعماقه ثم ينفجر ويسكن وتنطفىء كلّ جذوة للنار فيه ، الآن أستطيع الاستماع الى صوتي والاصغاء اليه لأتبين ما حدث »[١٦] .

فينخلق فضاء غير محدود من الحرية والانطلاق ، يدفع بالشخصية الى أن تقرّر « الآن أستطيع الأتماء الى [صوتي]

والأصغاء اليه لأتبين ما حدث » • بمعنى أنّ الصمت يخلق صوته الخاص المعبر ، صوت يتقاطع مع الصوت المنطلق الى الخارج، وينطلق بعكس اتجاهه ، فالصوت الخارجي يبقى محجوزاً في دائرة الخارج وهي تعمل باستمرار على التحديد والتسييج ، في حين يتقدم الصوت المتحرّر من دائرة الصمت الى فضاء قسوة الواقع وحرية الحلم •

انّ فضاء الصمت يكاد يهيمن هيمنة كلية على بنية اللغة الحكائية في قصة « في المرآة » :

« أتذكر الآن أن الأمر بدأ من عزوفه عن الكلام ، لقد أخذ يفضل الصمت والشرود ، يكاد يكون ذاهلا عما حوله ، وكلما قطع دائرة الصمت التي يغلقها بأحكام حول نفسه أو كثيرا ما كنت أنعم ذلك • كان يفر شبه مذعــور ، تتشنج عضلات وجهه ، يتطلع اليّ بأستغراب ونظرة خوف تملأ عينيه •

وكان في تلك الأيام يطيل النظر بوجل الى وجهه في المرآة، يقف أمامها ، يقترب منها ، يبتعد عنها ، محدقا على الدوام ، في عينيه وملامحه الأخرى التي كانت قد أخذت في الشحوب • كان مرة يتبسّم لنفسه أو تتقلص بحدة ملامحه في مرة اخرى ، وعندما يذرك في لحظة ما اني أرقبه ، يبتعد عن المرآة متشاغلا عني وعنها بأي شيء آخر • وذات ليلة تأمل وجهه في المرآة وبعد أن حدق فيها مليا التفت اليّ فجأة على غير عادته وسأل :

[illegible] ما الذي تغيّر فيّ ؟

تطلعت اليه واجمة وظللت على حالتي تلك • لا أعرف بماذا اجيب • »[١٧]

ولو جربنا تحليل هذا المقطع منها على أساس دلالات الصمت الضاغطة بالصورة الآتية :

١ ــ عزوفه عن الكلام •

٢ ــ يفضل الصمت والشرود •

٣ ــ يكون ذاهلا عما حوله •

٤ ــ قطع دائرة الصمت التي يغلقها بأحكام حول نفسه •

٥ ــ يطيل النظر بوجل الى وجهه فى المرآة •

٦ ــ عندما يدرك لحظة ما أنني أرقبه •

٧ ــ تأمل وجهه فى المرآة •

تطلعت اليه واجمة وظللت على حالتي تلك • لا أعرف بماذا بماذا اجيب •

لاكتشفنا أن شبكة الافعال القصصية العاملة تتمحور حول « الصمت » ومشتقاته وقنواته المتعددة ، وهي فى سبيل خلق لغة أخرى فى القصة هي « لغة الصمت » •

وتعمل « المرآة » ــ بوصفها رمزا قصصيا جديدا يتمركز فيه الحدث الأساس فى القصة ــ على اضفاء قيمة فنية جديدة لدلالة « الصمت » ، لأنها مستقبل بصري يعكس الوجوه والأشياء

ويبعث على الاستغراق في التأمل ، والانطلاق في عوالم الحلم والذكريات ، عبر علاقة صامتة بينها وبين الرائي الباحث عن قرينه الملموس بصريا في المرآة .

« المرآة » هي الزمن المخيف الذي يرعب الزوج الذاهب الى الحرب والقادم منها بدوامة لا تعرف الاستقرار ، وهي الجدار الذي يرتفع يوميا بينه وبين زوجته المنتظرة ، انها المكان المعلق الذي يذكر الزوج بالموت باستمرار فيفزع الزوجة .

انّ لجوء الزوج الى « المرآة » هو هروب من سلطة الكلام الى حرية الصمت . ويعمل الصمت على فتح قنوات باتجاه الداخل ، باتجاه الرحيل الى الأعماق :

« في لجة الصمت والهدوء أغرق الى الداخل ، وأتذكر أنه في اجازاته الأخيرة أصبح حديثه (ان تكلّم) لا يدور الاّ عن الحرب ، بينما كان في خلال أشهر طويلة ، ينبذ ذلك الحديث كلما تطرقت اليه ويتجاهل أسئلتي الكثيرة ولا يجيبني الاّ بكلمات مبتورة »(١٨) .

فالزوجة المنتظرة الدائمة لا سبيل أمامها من أجل حلّ معضلتها سوى الاحتماء بهذا الصمت الذي يغرقها في هدوء الداخل ووحدته ، في مقابل الزوج الذي بدأ يفقد ملامحه ويتشيّء ناسيا الكلام أو فاقدا القدرة على أدائه (ان تكلّم) ، وحتى هذه الجملة الفعلية المصدرية لا تقدم سوى صوت مقفل لأن الكلام « لا يدور الاّ عن الحرب » ، وليس عن الحرب مطلقا ، انما ذلك الجزء

المحدد الذي يذكره بانحداره الحيوي المستمر ، فضلا عن اتخاذه موقفا سلبيا من كل مفردة الكلام/ الصوت « ينبذ ذلك الحديث/ يتجاهل أسئلتي / لا يجيبني الا بكلمات مبتورة » •

الكلام هنا يصبح فعلا طارئا لأنه لايؤدي الا الى نتائج سلبية تضخم حجم المأساة ، فى حين يعمل الصمت على اختراع أحلام « وهمية » تقلل من حدة الاحساس بالألم • وفي الوقت الذي تحاول فيه الزوجة باستمرار أن تخرق نظام الصمت من أجل القضاء على حيرتها ازاء التحول غير الاعتيادي فى شخصية زوجها ، فان استجابته تقدم المعادلة الصعبة التي وقع أسيرا لها عبر احساسه بالفصام « انا هناك انسان آخر » :

« أنا وحدي وفى لجة الصمت والسكون أتذكر انه فى اجازاته ما قبل الأخيرة ، وبعد أن حيرتني طباعه المتقلبة واعتياده الخروج وحده ساعات طويلة ، قمت أعاتبه •

ـ بدأت بالابتعاد عني وعن بيتنا •

ـ لا تظني أن فى الأمر شيئا • أجواء بغداد التي أصبحت شبه غريب عنها بدأت يجذبنى اليها فى الاجازات: الأنوار، الصخب، والجمال ، الشوارع ، الفنادق والضحكات التي ترن بين جدرانها والبذخ المتجلي فى الوجوه والاجساد • عندكم مظاهر نسيناها ، وهناك لكل شيء حساب ، وبضعة أمتار فقط هي مجال حركتنا• وكما قلت لك لكل شيء حساب « الضوء والكلام والغناء وحتى الصمت • انا هناك انسان آخر »(١٩) •

ان هذه المعادلة تشعره بالغربة ، فثمة مكانان يهيمنان على حركته وسلوكه وحلمه يمكن توضيحها بالمرتسم الآتي :

المكان الاول بغداد			المكان الثاني ملجا	
	الانوار			
لا محدودية	الصخب			محدودية
الضوء	الجمال	الفاصل	بضعة	الضوء
الكلام	الشوارع	المكاني	امتار	الكلام
الغناء	الفنادق	الذهني	نقط	الغناء
الصمت	الضحكات			الصمت
	البذخ			

فهو فى المكان الأول يعيش الحياة الدافقة بكل مفرداتها وحيويتها يعيشها كما هي ، أمّا فى المكان الثاني فان محدودية « الضوء/ الكلام / الغناء / الصمت » تدفعه الى الحلم •

من هذا يتضح بان صراع الصمت والصوت هو صراع مكان•

انّ مناخ الحرب مساحة للصراع التقليدي بين الصمت والصوت ، اذ يأخذ الصمت أشكالا متعددة كما يأخذ الصوت أشكالا متعددة أخرى ، فالزوج يروي لزوجته بانوراما هـذا الصراع بوصفه الممثل الفعلي للواقع النفسي والوجودي الذي يعيشه المقاتل فى ساحة الحرب :

« وقال لي :

ـ هل تدرين أن الخوف لايتسلّل اليّ عندما تحتدم المعارك ، بل أنني أخشى ايّام الجمود ، حيث يتحتم علينا البقاء فى حفر تحت الأرض لا نفعل غير الانتظار بصمت ، بعد أن ينفذ منا الكلام • صمت نقطعه أحيانا بتبادل كلمات قليلة لا تعني شيئاً •

وعندما يهدنا التعب نغفو ونحن نحسّ أن خلايا أجسادنا المرهقة مثقوبة بأبر حادة رفيعة •

وقال لي فى مساء يوم آخر :

ـ فى فترات وليالي الصمت تلك (لاحظي أن أصوات المدفعية الثقيلة لا تعرف الصمت أبدا ، ينفجر أحدنا فجأة فى ضحكة جنونية أو فى بكاء متشنج أو يقوم من مكانه فى حركة هستيرية يبغي الصعود الى سطح الأرض • عند ذلك تنتهي حالة الصمت والترقب التي تلفنا ، نتحرك وقد يقوم واحد منّا على الأقل لوضع حدّ للحالات شبه الجنونية ، كيلا تتسلل عدواها الينا وهي تتسلل بالتدريج »[٢٠]•

فى المقطع الأوّل من روايته وهو يرسم هذه الصورة يربط الصوت بالشجاعة عندما لا يعرف الخوف حين « تحتدم المعارك »، واحتدام المعارك هو أقصى حالات الصخب الصوتي الذي لا ينقطع على حين يربط الصمت بالخشية والخوف « أخشى أيام الجمود »، وتكتمل صورة المشهد « لا نفعل غير الانتظار بصمت /ينفذ منا الكلام/صمت نقطعه أحيانا بتبادل كلمات قليلة لا تعنى شيئا •»

بمعنى أن الصمت هو سيّد الموقف ، وهو الذي يعمل باستمرار على فتح كوّة على الماضي بكل سعته وانفتاحه .

وفي المقطع الثاني يقدم مجموعة من المحاولات التي يكسر فيها حاجز الصمت القاهر ، لكي يتخلص من السكون المفتوح الذي لا حدود له ، وهذه المحاولات « ضحكة جنونية/ بكاء متشنج / يقوم من مكانه في حركة هستيرية » ، وهي افعال وحركات تحدث مجموعة من الأصوات الاعتباطية التي توهم بالقضاء على الصمت القاتل .

ثم يتحول الصمت وقرينه اللوني « الصفرة » الى قناع للزوج يلغي صورته الأصلية ويقدمه بوجه آخر :

« وكان قناعه الصفرة والصمت . لم يتحرك من مكانه في اليوم الأول ، ظل قابعا على كرسيه في الصالة يحرق سيكارة إثر أخرى متجاهلا وجودي ولهفتي »(٢١)

وهذه محاولة لتشخيص الصمت وأنسنته ، اذ يتحول الى سمة شخصية ملازمة ، تنقل الحدث القصصي الى مرحلة أكثر تعقيدا .

وتنطوي النهاية التراجيدية للقصة عن رمز مركب تكتمل فيه شبكة الدلالات المتداخلة :

« أقتربت منه : احاول احتضانه كما كنت أفعل في لحظات تدفقه ، استكان لي برهة ، لكنني لما بدأت أسحب المرآة

من بين أصابعه ، تشنجت عضلاته قابضا عليها بقوة غريبة ، رفع رأسه فى تلك اللحظة ، ولمحت فى عينيه تلك النظرة المخيفة .

سحبت بقوة أكبر ، تمسك بها ، نصحت به .

ــ هل جننت ؟ انها مجرد مرآة

قال :

ــ بل انها الحقيقة .

كانت يده ماتزال ممسكة بالمرآة ، ابتعدت عنه ، برقت عيناه واتسعتا ، رفع يده وقذفني بها فتكسرت قطعا صغيرة متناثرة وامتد جرح طويل على صدري . وتدفق الدم بيننا . »(٢٢)

اذ ان « الدم » رمز الموت ، أو التضحية ، أو الانتحار ــ عبر تحطيم دلالة الصمت فى « المرآة » بعد أن التصقت بوجه الزوج المقنع بالصفرة والصمت ــ هو الذي يحطم حاجز الصمت لكنه يحطم الحياة أيضا .

فالزوجة اذن ربحت معركة « المرآة/ الصمت » وخسرت الحياة كلها .

ظلال الرائحة : ظلال اللغة :

تتحول الرائحة في قصة « بخور » بما تمتلكه من قوة وعمق وسحر الى رمز التزغل فى الموروث الشعبي وسلطته الطاغية . فلرائحة البخور في الذاكرة الشعبية ألق خص . وتأثير يتجاوز الحدود السايكولوجية الضيّقة لمسار الشخصية الى قدرة خصة فى صنع هذه الشخصية على وفق مواصفات خاصة :

« انها الرائحة نفسها ، زكية ومكثفة العطر وثقيلة الأثر ، منتشرة فى الغرفة الموصدة النوافذ والباب ، تتغلغل فى أعماق الروح وتشبع بها النفس ، وتدفعني فى كل مرة الى الجلوس في سكون مأخوذا بأجوائها وبالسحر الذي تحدثه وتخلقه فى المكان . رائحة شرقية حادة تنبعث من عيدان رفيعة ، قصيرة ، بنية غامضة أو مائلة الى السواد ، تسري وتشيع فى المكان مع دخانها المتماوج الرفيع ، جوا من الغموض ، فتختلط الأشياء فى ذهني وتدفعني الى الصمت التام والتأمل . هل قلت الصمت التام ، الا انها ليست بالكلمة المناسبة . فللصمت لغة أيضا ، لغة ساكنة ، تصطخب فى ثنايا الانسان وتحمل في تدفقها قوة سريان المياه في الانهار العميقة المنحدرة من أعالي الجبال وقوة عاصفة لاتذر فى هبوبها ولا تبقي»(٢٣).

انّ هذه الرائحة تخلق مناخها الخاص وأجواءها الخاصة بكل ما يحمله هذا المناخ , وهذه الأجواء من ألوان وسحر وجاذبية

وفضاء لاحدود له ، تدفع جميعها الى « الصمت التام والتأمل » • فالصمت هنا نتيجة لفعاليات متعددة يختلط فيها الواقع بالخيال والذاكرة بالحلم • صمت ينفتح على الطبيعة بلغة ساكنة لها نظام حركي لا صوتي •

لا تكتسب رائحة البخور قوة تأثيرها وسطوتها بهذا الشكل الا اذا انطلقت من مكان يزيد من سحرها وغموضها « المقبرة الكبيـــرة » :

« أحمل عيدان البخور وأعدو صوب المقبرة الكبيـــرة ، بجوار النهر حيث رأيتها أول مرة وحيث كنا نلتقي • وما ان ابدأ فى الحركة حتى تتوثب مشاعري كما فى اليوم الأول ويزحف توتر مضاعف الى أعصابي المشدودة المتعبة ، يرافقه خوف وتوجس وحاجة شديدة الى تبادل حديث حميم مع أي انسان أجده قريبا مني لأبدد معه لجـــة الحزن التي وجدت نفسي بهـــا بعد رحيل أخي الأصغر »(٢٤)

فالراوي ـ الشخصية المركزيـــة فى القصة ـ يعيش وهم التعرف على امرأة فى المقبرة ولهذا الوهم ارتباط وثيق برائحة البخور والمقبرة الكبيرة •

فأجواء المكان تبعث دائما على الايحاء بمزيد من التفاصيل الغامضة فى الحركة والسلوك والعلاقات ، إذ يعمل مناخ الأسى والحزن الضاغط ، على اقفال حركة الشخصية وايقاعها فى صمت قاتل ، يدعوها ضرورة الى البحث عن أي منفذ لتصريف الحزن الخانق النابع من الصمت المطبق •

ان الحديث الحميم المتمنى يصبح حلم الشخصية فى القضاء على وحدتها واتصاقها بمفردات المـوت الشاخصة فى كل شيء فى المكان .

ويكتسب المكان « المقبرة » حضوره الاستثنائي مع نمـو الحدث القصصي ، بوصف ان الحدث مبني أساسا على قابليـة المكان على الاتساع والاحتواء ، وبقدر ما يتسع ويحتوي فانه يزيد من مساحة الصمت على حساب مساحة الصوت ، ومن هنا يبدأ الصراع المكاني بين « المقبرة / البيوت » أي بين « الصمت/ الصـوت » :

« المقبرة كبيرة تمتد طولا وعرضا وهي تتوسع مع الأيام تمتد البيوت اليها ، أو أنها تمتد الى البيوت وتكاد تتشبث بجدرانها، والأمر لا يشكل فى بعض الاحيان فارقا كبيرا ، فهناك أحياء أموات خارجها وأموات أحياء داخلها ، يطل كلا الطرفين على الآخـر ، يتبادلون المواقع والتحايا : طبتم صباحا وطبتم مساء وليلة سعيدة هانئة ! فقد اصبحت المقبرة واقعا مألوفا في الحياة اليومية لسكانها وهي توشك فى طرفها الجنوبي أن تتداخل مع بيوتها العتيقة ، وطقوس الدفن والنواح والعويل والحزن فيها قد غدت جزءا من الموسيقى المستديمة العزف وجزءا من المؤثرات الصوتية التي تفرزها حالات الحياة المتنافرة وتكرر النغمات المتعاقبة والمتشابهة فيها . وهي طقوس تنفتح عليها مدارك الأطفال وتنمو معهـم وتتصاعد مع امتداد خط العمر أيا كان طوله »(٢٥) .

الا ان هذه المعادلة تمثل الصورة الخارجية لفعاليات لحدث القصصي فى القصة ، فالمفارقة تحدث عندما يتبادل المكان افعالهما، اذ تقدّم الصورة الداخلية للحدث أصواتا تتدفق من صمت المقبرة، وصمت يلف البيوت « فهناك احياء اموات خارجها وأموات احياء داخلهـا » •

انّ تداخل المساحات المكانية بين المقبرة والبيوت يخلق نوعا من الالفة بينهما ، وينعكس هذا على الالفة المتوقعة بين الصمت والصوت بكل ما يحمله القطبان من دلالات راكسة فى الاعماق ودلالات موحية وأخرى مباشرة •

ثم يظهر الصمت فى قصة « بخور » على انّه حاضنة لصوت كامن ، لذلك فهو مفتوح على صوت قابل للانطلاق فى أية لحظة يتعرض فيها لتحريض مباشر :

« قلت وكأنني أحدّث نفسي منبهرا بما رأيت :

ــ شروخ واهتزازت الروح من يسجلها ومن يداويها ؟
رفعت راسـها اليّ وللمـرة الأولى أجابتني بصوت رنين وكأنها لم تعد تغالب الصمت الطويل :

ــ بعض شروخ النفس وانشطاراتها أعمق من أن تداوى •

لم أجبها اذ كان مجرّد سماع صوتها بعد الصمت الطويل مفاجأة شلت لساني ، وسكوتي شجعها بعد دقائق على مواصلة الكلام فأضافت وكأنها تقرأ قصيدة اعتادت ترديد أبياتهـا :

ـ قنبلة انفجرت بين يديه تناثر فى الهـواء وذاب فى الحال كما تذوب قطعة السكر فى ماء مغلي • صرخات حادة من امرأة فى الجوار قطعت حديثنا • رنونا اليها ، واقفة ، ملتفة بعباءتها المتربة وقد حلت ظفيرتيها الرماديتين وشـقت ياقة ثوبها وهي تنوح »(٢٦)

فالحوار السري المتصوّر الذي كانت تحـدثه الشخصية المركزية « الراوي » في القصة مع المرأة التي تـردد على المقبرة بأستمرار ، وتوحي له بأشياء غامضة ، كان محكوما عليه بالصمت، غير أن هذا الحاجز الصمتي ما يلبث أن ينكسر بعد حديثه المنبهر إذ « أجابتني بصوت رقيق وكأنها لم تعد تغالب الصمت الطويل »، وأنتقلت المـرأة من موقع الصمت والوهم الى مساحة الصوت والحقيقة لتقلب المعادلة رأسا على عقب ، وتنقل صوت الراوي الى موقع لصمت والمفاجأة « لم أجبها اذ كان مجرد سماعها بعد الصمت الطويل مفاجأة شلـّت لساني » •

كما أسهمت الأصوات الخارجية « صرخات حادة من امرأة فى الجوار » بما تمتلكه من ايقاع معيّن ، فى اضفاء شـيء من القدسـية على هـذه النتيجة لتي آلت اليها قصة الصراع بين الصمت والصوت •

ويبلغ الحدث القصصي أعلى مراحل تطوره ونموه عندما يتحول الى شبكة متداخلة من الأصـوات تضيع فيها الحـدود وتختفي المسافات ، ويصبح من الصعب فصل صوت عن آخر :

« ولدهشتي وجدت الكلام يتدفق مني بعد انحباس طويل ويختلط بصوت الأم المشروخ ، اتحد صوتانا وتداخلا وكان أحدهما صدى للآخر ، ولم أعد ادري أو أميز ، أيهما صوتي، إذ انبثق من الصوتين صـــوت ثالث غريب الرنين ، يعلـــو وينخفض فى انسجام تام »(٢٧) .

فبانبثاق « صوت ثالث غريب » تتحـــول القصة لى لوحة سيمفونية تتعدد فيها الأصـــوات من أجل أن توهم بغياب الصمت .

خاتمة : من الدلالة الى الفن :

لعلّ تفحصــا دقيقا لقصص أبتسام عبدالله يقــود ضرورة الى اكتشاف ملامح فنية أصيلة ، تشهد برقي فنها القصصي وذكائه، فشخصيات القصص الثلاث تفتقد الاسماء المحددة « المعلنة » وذلك يمنحها أفقا حكائيا عاما يتجاوب تماما مع مقترحنا القرائي الخاص بالمستوى الدلالي ، اذ ان افتقاد الشخصيات الاسماء هو صمت خارجي ينطوي على صوت داخلي .

كذلك اللغة القصصية التي استخدمتها القاصة فقد جاءت مكثفة موجبة لها « ظلال » ، وهذه الظلال هي التي ترســم فى كل قصة من قصصها مرتجعا حكائيا سريا غير قابل للبوح ، على الرغم من وجوده الشاخص فى القصّة .

فضلا عن الاجواء القصصية الخاصّة التي تمزج بين الحرب والحياة ، الواقع والخيال ، الذاكرة والحلم ، المعتقد والاسطورة، بطريقة تتقصد العفوية فى التعبير والايحاء لتهرّب دلالات قابعة فى ظلال اللغــة .

انّ القاصّة أبتسام عبدالله صوت قصصي عراقي متميز ، ينبغي الاحتفاء به واعطاؤه ما يستحق من الدراسة والنقد .

الهوامش

١ ـ سمير المرزوقي وجميل شاكر ، مدخل الى نظرية القصة ـ تحليلا وتطبيقا ـ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٦، بغداد ، ص ٢١٤ .

٢ ـ فردريك هوفمن ، القصة الحديثة ـ الادب الامريكي في نصف قرن ـ ، ترجمة بكر عباس ، دار الثقافة ، ١٩٦١، بيروت ، ص ١٦ .

٣ ـ علي عبدالحسين مخيف، في قصة الحرب ـ دراسة نقدية ـ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٤ ، بغداد ، ص ١٧٦ .

٤ ـ عباس عبد جاسم ، قضايا القصة العراقية المعاصرة، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢ بغداد ، ص ٢٦١ .

٥ ـ باسم عبدالحميد حمودي ، النار والزيتون (في قصة الحرب) ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢ ، بغداد، ص٢٠.

٦ ـ نفسه : ١٥

٧ ـ مجلة الاقلام ، العدد ١ ، السنة ٢٤ ، ١٩٨٩ بغداد، ص٣٧

٨ ـ الاقلام ، العدد ٣ ، السنة ٢٥ ، ١٩٩٠ بغداد ص ٨٦

٩ ـ الاقلام ، العدد ١١ ـ ١٢ ، السنة ٢٧ ، ١٩٩٢ بغداد ص٥٥

١٠ـ الاقلام العدد ١ ، السنة ٢٤ ، ص ٣٧ .

١١ـ نفسه : ٣٧

١٢ـ نفسه : ٣٧

١٣ـ نفسه : ٣٨

١٤ـ نفسه : ٣٨

١٥ـ الاقلام ، العدد ٣ ، السـنة ٢٥ ، ١٩٩٠ بغداد ص ٨٦

١٦ ـ نفســه : ٨٦

١٧ ـ نفســه : ٨٦

١٨ ـ نفســه : ٨٧

١٩ ـ نفســه : ٨٧

٢٠ ـ نفســه : ٨٨

٢١ ـ نفســه : ٨٨

٢٢ ـ نفســه : ٨٨ـ٨٩

٢٣ ـ الاقلام ، العدد ١١ ـ ١٢ ، السـنة ١٩٩٢ بعداد ص٥٥

٢٤ ـ نفســه : ٥٥

٢٥ ـ نفســه : ٥٦

٢٦ ـ نفســه : ٥٦

٢٧ ـ نفســه : ٥٧

جداول الصمت

● أربعة صناديق خشبية طويلة ورفيعة ، مصفوفة ، الواحد جنب الآخر .

أربعة صناديق تنتظر ، منذ أيام ، أن يأتي من يتعرف على أجساد أربعة داخلها ، من يتطلع اليها بمحبة ، ومن يحتضنها بحنو، ليدفنها ، فيما بعد فى حفرة من الأرض ثم يقيم من اجلها العزاء ويقرأ ، من يسر ، مع أرواحها سورة الفاتحة

كثيرون أتو الى المكان كهول وشبان ، رجال ونساء ، يسألون ، بأصوات متهدجة ، يغلفها اليأس ، عن أعزاء ضاعت آثارهم ، جاءوا ، يحف بهم خوف مبهم وتفرسوا فى الأربعة وهزوا رؤوسهم غير مقتنعين بما رأوا ثم غادروا المكان وخيوط من فرح غير معلن بعد ، غير مؤكد بعد ، تتشكل على وجوههم التي أضناها التعب والبكاء والقلق والسهر .

الصمت الكثيف الذي يعم المكان منذ زمن ينكسر فجأة ،

ـ ما الذي حدث ؟

تساءل أحدهم وأضاف ،

ـ كثيرون مروا أمامنا ، هزوا رؤوسهم فزعين وعبروا . أترانا قد تغيرنا الى هذا الحد .

وقال الثاني ،

ـ كان من بينهم والدي ، ما ان فتح الغطاء الخشبي حتى كسا الوجوم وجهه ، تطلع في وجهي برهة ثم أشاح عني • لم يعرفني صحت به • لم يسمعني • أردت أن أتشبث برقبته كما لو كنت صغيرا لكنني لم اقدر •

ـ اني سمعت صيحتك •

وقال الثالث •

ـ سمعتها أنا أيضا • أما تدري أن أصواتنا تحولت الى جداول من صمت ، تسري فيها الكلمات بيسر ، نسمعها، لكنهم لايسمعون•

* * *

والناس ما تزال تأتي وتروح • تدور حول الصناديق الاربعة، تفتح اغطيتها ، تتأمل ما في داخلها بالوجل نفسه والخوف نفسه ، تتفرس في الوجوه والايدي والأكف والصدور والرؤوس تبحث عن علامات فارقة تعرفها جيدا ، عن شامة صغيرة ، مثلا ، أو كبيرة ، عن ندبة ، ومن أثر جرح قديم او عن تجعيدة ما على الجبين خلفها الزمن أو خصلة من شعر كانت ، أبدا ، نافرة •

علامات كانت فارقة ، لكنها لم تعد فارقة ، فالحرب في علوها وصعودها ونزولها وهبوطها ، تمسح في حركتها الدائمة ، كل العلامات وتحرق بين لحظة وأخرى ، بخورها من أجل الشهداء في كل بقعة من الوطن •

والاربعة ، اتعبهم الانتظار • تنحدر الكلمات بينهم همسا •

يتبادلون الذكريات وعندما تنفـد من خزائنهم ، يستعيد واحدهم من الآخر مسّرات أيام عتيقة . خبت الوانها حتى تبدو بعضها غارقة ، في عتمة غامضة .

لا حـدود واضحة لها . اربعة صناديق خشبية ، مصفونة بعضها جنب بعض . لا ينسل منها صوت ، فجداول الصمت فيها تجري على مهل ، تغدو لغة سرية في التخاطب ، لا يقدر على سماعها أو فك رموزها أحد من البشر .

كانت المدينة غارقة في الظلمة والليل فيها قد اشتد ، بل كاد أن ينتصف . ويدور متدحرجا نحو الغبش ، لما انفجر صـوت مخيف في سمائها . صوت يهز الأبواب والنوافذ ويقتلع عددا من الجدران والسقوف ويزرع الخـوف في كل القلوب ، صغيرها وكبيرها .

تهتز الصناديق الأربعة . تتحرك من أماكنها ، ثم تهدأ حركتها بعد قليل مع خفوت الضجة والصوت . ويسأل واحدهم الآخر من جديد :

ــ ما الذي حدث ؟

ــ انها الحرب ، زحفت من الحدود الى المدينة ، صاروخ قد انفجر في الجوار . ألم تألف أصواتها . دوي يعقبه صدى أشد .

ــ تعج أذناي بأصوات ونغمات متعددة الدرجات ، دوي وصدى وفحيح وهسيس وحفيف . صراخ وهمس . ثم مـوت ودم

وحريق وفحم ، وأجساد تتطاير وعظام تتبعثر ، ورائحة شواء لحم وحديد وحجر وتراب ، بلى قد ألفتنا حتى لم أعد أميز بين الصوت والصوت . كلها سواء .

ويقول ثالثهم :

ـ الصوت القوي هزني . شال الغطاء عني ، انني الآن أتطلع فى سقف مرتفع وها أنا ذا ، أدير الطرف ، فى غرفة عارية ، خالية ، الآن منا ، نحن الأربعة ، تدفعني رغبة ملحة ان أقوم ، ان نقوم معا .

ويرد الرابع عليه ،

ـ القيام وهل حانت ساعة القيامة ؟

ـ لم تحل بعد ، وهي لاريب آتية ، انها ساعة قيامتنا نحن .

ـ والى أين نقوم ؟

ـ صوب المدينة . نطوف فى شوارعها . نلتقي بمن نعرف ونحب أو نهوى بل نكسر حدة الانتظار الطويل ، الممل ، بين الشك واليقين .

ـ المدينة : الصمت يعم المدينة والعتمة الشديدة من حولنا ، تقول ان الليل فيها قد دخل نصفه وأن الفجر أوشك ان يلوح. اني أخشى ضوء النهار . فقبس من نور الشمس ، ان لامس أجسادنا ، أذابها حد التلاشي .

ـ لكنه لن يلامسها قط •

يصمت الأول ، يبتسم الثاني ، يطلق الثالث ضحكة قصيرة ويقول كأنما يقرأ فى كتاب مفتوح امامه •

ـ اجل ، الاحياء ـ الاموات ـ الأموات ـ الأحياء قد حانت ساعة قيامتهم •

رابعهم لا يفوه بشيء • يصغي اليهم ثم يمدّ يدا ويزيح الغطاء من فوقه جانبا ويقوم من مكانه بحركة واحدة ، يمد كفيه الى جسده ويتحسس كل عضو فيه بوجل •

الثلاثة الآخرون يفعلون مثله • يديرون وجوههم فى أطراف الغرفة ، ينبعث من عيونهم بريق آسر ، كأن عيونهم مواقد تأبى جمرتها الانطفاء • يقومون من رقادهم ، يستديرون صوب الباب قاصدين الخروج ، تفوح منهم روائح المسك والبخور والطيب وتلفهم ، اينما تلفتوا ، هالات من النور • وفى المدينة الكبيرة ، يسير الأربعة جنبا الى جنب ، اذرعهم متشابكة وخطواتهم متشابهة وجداول الصمت النابعة منهم توحدهم في اغنية واحدة •

كانت المدينة • فى تلك الساعة ، غارقة فى العتمة • بيوتها عالية الأسوار ، غناء الحدائق ، نخيلها ، غابة تعج بالاسرار ، تشق دروبها جداول وسواق كثيرة ونهر عظيم •

ـ تمهلوا • هذه مياه جارية • من يغتسل فيها يتطهر مما علق به •

ـ قد تكون باردة •

ــ اجل ، قد تكون باردة . أجسادنا لا تحس ولا تتألم ولاتشتكي ولا يمر فيها خيط من تعب أو وهن .

الاجساد الشفافة الأربعة ، تغتسل على مهل ، وبقع زرق ــ حمر ، داكنة ، مبثوثة فيها ، تأبى أن تزول عنها ، كأنما قد تحولت الى وشم او علامات فارقة جديدة لم يألفها الأهل ولا الأحباب ولا الصحاب ، يحملونها معهم في طوافهم ، يدورون في الأزقة ، يدورون حول البيوت ، يلامسون جدرانها ويبصرون ولا يبصرهم أحد .

ومرة اخرى ينطلق هسيس الماء في جداول الصمت مكونا السؤال نفسه .

ــ ما الذي حدث ؟

كل من في المدينة قد أغمض عينيه في هذه الساعة وغرق في نوم عميق .

ــ مهلا ، انه الليل والفجر يكاد ينبلج .

لكنهم يتمهلون ، يواصلون المسير جنبا الى جنب ، أذرعهم متشابكة وخطواتهم متشابهة ، تسربلهم هالة واحدة من النور ، يتقدمون وقد زال عنهم وجل أيام الأيام وقلقه ، مجتازين في مرحلة استحالتهم ، نبض الزمن المستمر ، المتوتر ويسبرون أغوار الشك صعودا الى يقين ناصع غير مبهم .

خطواتهم تتوقف لحظة ، فالوقوف يعني الوصول الى خاتمة

المطاف ، وهي خاتمة لاريب في بلوغها ، انهم في السعي بين الدرب و لدرب وبين البستان والغابة وبين الجدول والساقية والنهر ، يبصرون ما لم يبصروا من قبل ويسمعون ما لم يسمعوا أو يسمعه بشر • ومدينتهم بعد طوافهم حولها سبع مرات ، تبدو في امتدادات اسوارها وتراص البيوت فيها والحدائق والميادين والازقة والدروب، مثل زهرة مدومة الأطراف ، مغلقة أمام غرباء قد تراود أنفسهم رغبة آثمة بامتلاكها أو ضمها •

بطمأنينة وسلام وهدوء ، يتأمل الأربعة سطح المدينة ، يستكشفون أسرارها والغازها ومداخلها المحروسة وعندما يحاولون الغوص فى أعماقها •

تستعصي ارضها عليهم ، فهي لاتنشق امامهم ولا تنفتح وكلما كرروا محاولتهم النزول الى تحت ، تشرق كوة نور فى السماء ، تغشي الأبصار وتناديهم اليها •

وتزداد بقع النور شيئا فشيئا وتتسع كلما أخذ الليل فى التدحرج صوب الغبش • وقبل أن يتململ قرص الشمس فى مكانه، وقبل أن يبث أول اشعاعاته الى المدينة الكبيرة ويغسل النوم عن أعين ساكنيها ، تلبي الأجساد الاربعة دعوة السماء وتبدأ صعودها الى الأعالى ، تسبقها جوقة من المزمرين والمنشدين وتحف بها الملائكة ، من كل حدب وصوب حتى تتلاشى عن الانظار •

يوم الجمعة

لم تنحرف في تلك الساعة من الصباح يمينا كما اعتادت ، وصلت الى ذلك الشارع الذي يمتد من جانبه حتى يحاذي النهر ثم تضيع اطرافه في ثنايا تعرجاته . ففي كل مرة كانت تبطيء من حركة السيارة تتطلع الى اليسار ، تتأمل الأشجار ، والعشب الأخضر الندي والجسر الحديدي بخطوطه المستقيمة الرمادية والظلال التي

يلقيها على صفحة النهـر ، وتتمنى من أعماقها لو متلكت الجرأة مرة وركنت السيارة في أحد الأزقة الجانبية على اليمين وقطعت الشارع ثم جلست على واحدة من تلك الارائك الخشبية المبثوثة ، ولكنها ، في كل مرة ، وبعد أن تبطيء من حركة السيارة وتتوقف لحظات متأملة المكان ، تضغط دواسة الوقود من جديد منطلقة دون توقف وهي تقول لنفسها : سأفعلها في المرة القادمة ، سأختار وقتا أفضل ، ربما في الصباح الباكـر أو وقت الأصيل عندما يغدو قرص الشمس كرة برتقالية اللون والسماء في الافق دكناء ، وشعاع الشمس الآفلة المتحد مع العتمة يرسم حزمة رائعة من الالوان مثل مظلة عريضة منبسطة فوق الجسر الحديدي وقمم أشجار النخيل وموجات نهـر دجلة .

لم تنحرف في تلك الساعة من الصباح يمينا كما اعتادت ، بل اوقفت السيارة في الزقاق الجانبي الاول (كما كانت تتخيل بأستمرار) ترجلت منها ، ثم قطعت الشارع بسرعة وتلفتت حولها .

صف من البيوت الانيقة على اليمين مشيدة من الاجر ، لها نوافذ عريضة تؤطر زجاجها مادة الالمنيوم ، جلست على أريكة خشبية، يا للمدينة ويا للشارع الذي يمتزج فيه القديم والحديث ، الالمنيوم والآجر ، النخيل والنهر وامتدادات جسر الحديد •

تأملت المشهد الذي يبهرها باستمرار وأحست بالهدوء وبالطمأنينة تزحف اليها بعد دقائق • لم تلتفت الى الخلف • ولدهشتها اكتشفت أن ما فعلته أو لخطوة الجريئة التي كانت تراود بالها باستمرار ولا تجرؤ على تحويلها الى حقيقة ، لم تحدث كما كانت تعتقد ، ردة فعل ما ، لم ينتبه اليها احد ولم تزعجها أصوات منبهات السيارات ، « لقد تغيرت المدينة فعلا ومشهد امرأة وحيدة تتأمل النهر لم يعد يستوقف أحدا » ، وفكرت في تلك اللحظة بالتدخين ، فتحت حقيبتها ، لمست أصابعها علبة الدخان ، لكنها تراجعت ، لترجيء الأمر الى المرة القادمة ، ومن الأفضل أن يكون ذلك ساعة الأصيل ، حين العتمة تغلف كل الاشياء وتمحو الخطوط الحادة الواضحة وتحولها الى مجرد ظلال لا تعلن عن نفسها بصراحة •

واصلت تأملها ، تشبعت نفسها بالطمأنينة قبل أن تغادر مجلسها •

* * *

كان واقفا في شرفة داره المطلة على النهر • لقد استيقظ في يوم الجمعة هذا مبكرا على غير عادته • لم يتحمل البقاء في فراشه •

افكاره كانت مشوشة منذ الأمس وأضطرابها هـو الذي جعل نومه متقطعا وقلقا • نزل الى لمطبخ • صبّ لنفسه فنجان شاي واحتساه فى لحظات • صعد الى غرفته • لا يدري ماذا يفعل•

هل يقرأ كتابا كان قد بدأ قراءته منذ اسبوع أم يتصفح مجلة ملونة الصفحات اشتراها البارحة ؟ حاول ، ولكنه لم يقدر على لقراءة •

خرج الى الشرفة ، النهـر ، الاشجار ، الجسر الحديدي : العشب ، الارائك الخشبية و مرأة متوحدة مع الصمت والطبيعة •

ما الذي جاء بها الى هنا فى هذه الساعة التي تبدو مبكرة بالنسبة لأيام الجمعة ؟ ما الذي اخرجها من بيتها ؟ كان بأمكانه رؤية ظهرها من مكانه ، بلوزة زرقاء وشعر أسود ،

جالسة مثل تمثال يحدق فى لفراغ ، ظل يرقبها ، « لابد انها على موعد مع أحد ، سأنتظر مجيئه معها ، ذاك أفضل من القراءة » •

ولم تبدو من المرأة حركة تدل على انتظارها احدا ، ظلت دون حراك تحدق فى النهر ، ولكنها بعد ربع ساعة تقريبا فتحت حقيبتها ، تطلعت فى داخلها كأنما تفتش عن شيء ما ، ثم أغلقتها•

جلس الرجل على كرسي فى الشرفة وعيناه لا تحيدان عنها ، وعندما قامت من مكانها واستدارت ، تنبه الى شكلها ، كانت جميلة وكان الوجوم يكسو وجهها ، تابع خطواتها حتى اختفت في الزقاق الجانبي الاول •

* * *

في صبيحة الجمعة التالية جاءت المرأة ، جلست في مكانها ، توحدت مع ماحولها . وفي ذلك الصباح ، كان الرجل قد نسي أمرها في بادىء الأمر ، ولكنه تذكرها حالما أجال عينيه في الغرفة ووقعتا على الكتاب المركون على لمنضدة المجاورة للنافذة منذ اسبوعين ، نهض من فراشه مسرعا ، فتح باب الشرفة ، « هل سيراها » ، ووجدها هناك ، مولية ظهرها البيوت ، مرتدية الباوزة الزرقاء ، جالسة مثل تمثال يحدق في الفــراغ . أتراه يتخيــل وجودها ، أم انه يستعيد ما حدث له قبل اسبوع في الساعة نفسها من النهار .

وقف في مكانه يتطلع الى الأمام ، ربما أخلف الرجل وعده معها في الاسبوع الماضي وهاهي تنتظره في المكان نفسه .

راقبها للمرة الثانية . بقيت ساكنة اكثر من نصف ساعة ثم قامت من مكانها وقطعت الشارع في خطوت سريعة دون أن تلتفت الى ما حولها وأختفت في الزقاق الجانبي الاول .

في ساعة الأصيل من يوم الجمعة التالي ، ركنت المرأة سيارتها ، واتجهت الى مكانها . كان الصمت من حولها كثيفا والعتمة المتهدلة ببطء ترمي طبقات من أغطيتها على كل شيء وتوحي لها بوحدة شديدة ، ولما أحست بوطأتها عليها تشتد . اخرجت سيكارة من حقيبتها وأخذت بالتدخين وعندما أوغلت في أفكارها ، دخنت المزيد . ولم يكن الرجل في تلك الساعة . في الشرفة ليرقبها من مكانه المعهود .

* * *

في الجمعة الرابعة، استيقظ الرجل في ساعة مبكرة، تناول أفطاره، حلق وجهه وغير ملابسه وكأنه ذاهب الى موعد عاجل ، تطلع في ساعته مرات وهو واقف في الشرفة حانت الثامنة ولم تأت ، التاسعة مرت وكذلك العاشرة ثم الثانية عشرة ، ترك مكانه حزينا ، ترى كيف تخلفت المرأة موعدها مع النهر والصمت ومعه .

ظل في المنزل لا يبرحه ، مر المساء عليه ثقيلا ، وكان طوال الوقت مهموما ، يحس انه يفتقد عادة غدت ضرورية بالنسبة اليه . وظل بينه وبين نفسه يتساءل ، ما الذي عاقها عن الحضور ؟

هل حل بها مكروه ، أم تراها اتفقت مع الرجل لآخر على موعد في مكان آخر ، أم انها قطعت علاقتها به ؟ وكلما تنبه الرجل الى أن المرأة قد بدأت تحتل تفكيره ، حاول اشغال نفسه بأي شيء يفتح الكتاب المهمل منذ اربعة اسابيع ، يقرأ صفحات منه ، يلقيه جانبا ، يقف أمام المكتبة ، يبحث عن كتاب آخر ، يقلب أوراقه ثم يعيده الى مكانه .

لا مفر ، انها تحتله تماما وهو لا يقدر على فعل أي شيء .

المرأة المجهولة أصبحت هاجسه في يوم الجمعة ، أين هي وما أسمها وما عنوانها وما نوع الحياة التي تحياها وتبقى الاسئلة تحاصره ، كما تحاصره ، جدران غرفته في ذلك اليوم ، ولم يفعل الرجل شيئا سوى الانتظار ، وفي ساعة الأصيل ، بهره المشهد المعتاد . غادر الدار فجأة ، قطع الشارع ، جلس على « اريكتها » وظل يحدق أمامه كما كانت تفعل هي .

وغابت المرأة طـوال ذلك اليوم وعندما أوشك الليل على الانتصاف • عاد الرجل الى بيته متعبا •

* * *

في الجمعة الخامسة ، حدث الشيء نفسه • .لاستيقاظ مبكرا ، القلق ، محاولة الانشغال بأي شيء وفى ساعة الأصيل ، غيّـر الرجل ملابسه ، غادر الدار، قطع الشارع وجلس على الاريكة نفسـها •

نصف ساعة مضت ، صوت اقدام اقتربت منه ، رفع رأسه ببطء واصطدمت نظراته بها : ياللحزن النائم باسترخاء في عينيها ! وقف لها فى الحال •

ــ آسف ، أخذت مكانك ،

توقفت نظرتها عنده لحظــة • انفرجت شفتاها كأنما تريد أن تقول شيئا ، لكنها أطبقتهما فى الحال ، لم تجلس على الأريكة • بل وقفت حائرة أمامه ،

قال مرة أخرى :

ــ آسف ، سأبتعد ، هذ مكانك •

انفرجت الشفتان ثانية ، أجابت •

ــ ولكــن ••

ـ انه مكانك المعهود، لا أريد أن أتطفل عليك ..

وقالت المرأة في سرها ، وكيف عرف مكاني المعهود .

انها لم تشاهده من قبل ، لكنها لم تسأل ، جلست في مكانها وهي تغمغم ، « شعرا »

بتعد عنها ببطء ، جلس على مسافة أمتار منها ، ظلا يحدقان في العتمة ووجود كل واحد منهما بدا يتبعثر بحضور الآخر ويتداخل ،

قالت في نفسها :

« ما الذي جاء به الى هنا ليعكر علي صفو وحدتي وكيف استدل على مكاني ، اتراه يعرفني ، من هو ؟ »

وقال في نفسه :

ـ « انها لم تسأل عن معرفته مكانها ، انها لم تعر الأمر أهتماما ، من الذي يوحدها في دائرته ويجذبها باستمرار الى النهر ويحجبها عنه ، خطوات نقط تفصل بيننا ، ساقطعها في ثانية واحدة واسأل عن اسمها وأراها عن قرب » .

وبدأت بتسديد ملامحها ، ياللدهشة ، انه يتذكر منها العينين ومستديرة الوجه فقط والبلوزة الزرقاء والشعر الأسود .

نعم ، سيذهب اليها ويقول انه كان يرقبها من شرفته طوال الاسابيع الماضية وأنها أصبحت تحتل جزءا كبيرا من تفكيره في يوم الجمعة ، انه يومهما المشترك . يتذكرها فيه بشكل خاص

منـذ لحظة استيقاظه حتى منتصف الليل ، وسيقول أيضا انه انتظرها طويلا فى الاسبوع الماضي وكان قلقا عليها ،

قام من مكانه ، أحست المـرأة بحركته ، وجفلت مثل أرنب مذعور وقامت من مكانها فى لحال ، لم تلتفت اليه ، اتجهت الى الزقاق الجانبي الاول ، فتحت باب السيارة ومضت بها مسرعة •

وتكرر ما حدث في اليوم الاخير في ثلاث جمع تلت • الرجل والمرأة يجلسان ومسافة محددة تفصل بينهما سواء كان الوقت صبحا أم مساءا ، يتبادلان نظرة قصيرة ، قد تطفو ابتسامة ما على شفتيها وقد يهز لها رأسه بايماءة خفيفة •

وفى صبيحة الجمعة التاسعة لم يفكر الرجل كثيرا عندما قرر من جديد كسر حاجز الصمت بينهما توجه نحوها قائلا :

ـ لم يعد الصمت ممكنا ولم أعـد قادرا على التحمل • لابـد من الكلام •

قالت :

ـ تصورتك أكثر أحتمالا •

ـ لم يعد الصمت ممكنا ، فقد تحول الى صرخة ثاقبة واسئلة كثيرة لابد من الاجابة عليها •

ـ والآن ؟

ـ اريد أن اقترب منك ، أن اعرف شيئا عنك •

ـ كان بأمكانك الاكتفاء بما بيننا •

ـ بيوم الجمعة فقط أو النهر والعشب والاريكة والجسر الحديدي

وغابة النخيل وانت والصمت ؟ كان يوما واحدا فقط ثم امتد زاحفا على بقية الأيام ، هل تعرفين ؟

ـ قالت ربما •

ـ وتساؤل وأنت •

ـ مـاذا ؟

ـ يومنـا •

ـ سأتجاهل عبارتك ، وكأني لم أسمعها ، انه يوم شيء آخر •

أنا •

تصمت المرأة ولا تجيب • تحدق فى الفراغ ، ويضيف ،

ـ قولي شيئا • كنت تنتظرين أحدا وكنت أرقبك من شرفتي تلك • وجدت المشهد المعتاد يأسرني بسببك ، أن يرقب المـرأة سيدة وحيدة تأتي الى النهر صباح كل يوم جمعة فى المرة الأولى كان الأمر مجرد تسلية وعبث وفى المرة الثانية تحول الى اهتمام وفى الثالثة وعندما اختفيت النهار بأكمله عني ، غدا الأمر هاجسا يقلقني ويتعبني نعم كنت تنتظرين أحدا وبالبلوزة الزرقاء فى كل مرة •

ـ كنت •

ـ مـن ؟

ـ هـو •

ـ ولم يأت •

قالت بصوت عميق . « ولن يأتي »

ــ وكيف ؟

الصمت مازال حاجزا يمنعها من الكلام ، يقول بانفعال :

ــ تحدثي . افتحي مغالق النفس السجينة .

ومن أنت ؟ ولماذا انت بالذات .

قضــاء وقــدر .

ــ أي قــدر .

ــ ذلك الذي بعثني اليك كي أستمع وأنس ،

تتلاقى نظراتهما ، يقول بعد قليل ،

ــ كل ما في الوجود يحكي همومه بلغته الخاصة ، موجات النهر تتهامس وتتشاجر مع بعضها وأوراق الشجر تصرخ بوجه الريح وللانسان أغانيه ورفاقه . فهلا تحدثت ؟

ــ أنت لست رفيقي .

ــ وهــو ؟

وتقول بصوت مرتفع فجأة وكأنها تصرخ متوجعة وهي تشق غابة الصمت .

ــ هو ! لقد جن ، فهلا اكتفيت .

ويؤلمه نشيجها ، تسترسل فى كلامها دون حاجة الى الحاحه فى هذه المــرة .

ــ كنت أقول لنفسي دائما ، لو بحت بخلجات نفسي الحبيسة لأحد لتفتت ما في داخلي من مشاعر أنا حريصة على ابقائها متوهجة وحية ، وها أنا أجد فى داخلي رغبة تتصاعد الكلام •

ــ انه القدر ، لاتأبهي •

وتضيف وكأنها لم تسمع منه شيئا والكلمات تتدفق منها مثل أحجار صخرة فى قمة جبل ، تصدعت فجأة وبدأت بالانحدار مسرعة نحــو هــوة عميقة • لا قــرار لها • دون أن يقف في طريقها شيء •

ــ ما الذي جرى ؟ كل هذه الاحداث مرت وأنا أتفرج عليها دون أن أفعل شيئا • هل ماتت احاسيسنا تماما بعد أن تشبعت بالكثير !

ــ لم تمت ، انها حيــة والا ما التقينا •

ــ كان يتحدث عن المــوت كثيرا وكانت مهمته تسلم الجثث وحفظها في براد كبير ، اختزنت في عقله الصور ، نقل بعضها الي وعندما ازدادت كثافتها ، تفحمت وتشمعت ذاكــرته ثم انفجرت ، حمى شديدة انتابته وظل يهذي ويهذي حتى جن ولكن لماذا أحكي لك كل هذه الامور •

ــ أنا الذي سأل وأنا الذي حاول معرفتها • احكِ كل شيء ، واطرحي عن بالك كل التفاصيل حتى لاتتشمع ذاكرتك أيضا •

ــ كان يقول لي بأستمرار ، أن الجسد بعد أن تنسلخ الروح عنه يتغير ، تفقد الجثة الوانها ، تصبح شاحبة تماما وبعد أيام تغدو رمادية كالحة ، ويكون لونها أقرب الى لون الرصاص

المغبر ، تتيبس أعضاؤها في البراد الكبير وتصبح مجرد جلود رصاصية تغطي مجموعة من العظام •

ـ وماذا بعد •• احك ولا تتوقفي ••

ـ تتغير ملامحها تماما ، الفم ، العينان ، الانف والجبين ، وفى حديثه كان يردد في كل مرة (يا الهي كم يتغير الانسان) يفقد خاصيته ويصبح كتلة من عفن رمادية كالحة بلون الرصاص المغبر ؟

ـ هكذا وصفها ، مازلت أتذكر عباراته ، لون رمادي أسود ، وكل شيء فيه يتوقف عن الحركة ، نبض ولا دفق ارتعاشة فرح أو حزن أو رغبة عارمة أو حب •

وقالت له في اليوم الأخير من اجازته الأخيرة « وهل تتحمل ما تراه يوميا » قال « من يدري ، دائرة ادور فيها وأنا أحس بالصداع في رأسي يشتد يوما بعد يوم • اني أعيش بين الجثث ولكن واحد منهم رقمه ، سينفجر عقلي في يوم قريب وتندثر كل الصور المؤلمة المخيفة في ذاكرتي واتخلص من هذا الكابوس مرة واحدة •

« وسألته وأنا أمزح »، و « أنا ؟ » قال، ، « وماذا عنك؟» قلت « ما مصيري ، سأصبح أنا أيضا جزءا من ذلك النثار ، اليس كذلك ؟ لا تقل نعم » •

ظل نحوي وحب عميق كان باديا فى عينيه فى يوم الجمعة ذلك وقال وهو يبتسم مازحا « ربما ، لا أدري » •

وسكتت المرأة عن الكلام وظرات تائهة فى عينيها ، قاطع الرجل شرودها قائلا ،

ــ وهل تبعثرت من بعده جزءا من يثار !

ــ لا بل تماسكت لأنني ضممت حكايته بين جوانحي ولم أحكها لأحد ، لم انثرها في الهواء ولم اعرضها للشمس لكي تجف أو تتطاير وتضمحل •

ــ والآن ؟

ــ أحس بالألم ، شيء عزيز انسلخ عني ، الآن فقــط أحــس بتحرري منه • اترى أن التحرر من جزء غال ميت ، مؤلم الى هذا الحــد ؟

ــ لم أمر بتجربتك •

ظرة واحدة جمعتهما • ظرة لم تدم طويلا • قامت المرأة من مكانها بغتة وهي تقول بصــوت هادي، لا أثــر للانفعال أو الخوف فيــه •

ــ هل رأيت، كيف أن القدر شدني اليوم الى هذا المكان وتأخرت اكثر من المعتــاد •

وسارت مبتعدة عنه بضع خطوات ثم التفتت الى الخلف حيث تركته مسمرا فى المكان • انفرجت شفتاها عن ابتسامة واهية تعبة وهي تقول •

ـ شكرا ، لقد خلصتني من غيمة سوداء ظلت في صدري دون أن تمطر قطرة واحدة . لقد تحررت منها . » .

قطعت الشارع واختفت مسرعة في الزقاق الجانبي الاول .

* * *

وفي أيام الجمع التالية ، انتظر الرجل طويلا ، انتظـر في الشرفة صباحا وعلى الأريكة قرب النهر ، مساء ، انتظر ولم تظهر له المرأة وظل يفكر في ما حدث وسؤال واحد يؤرقه ، ما اسمها وما نـوع حياتها وظل ينتظـر ونفسـه تجيش بالأسـئلة هل كانت امرأة حقيقية تلك التي تحدث معها أم ان الامر كله كان مجـرد خيال .

٢٥ / كانون الثاني / ١٩٨٩

الازرق ـ الرمادي

« الحياة غير مشوقة مالم نضف اليها شيئا ولو تافها من اللاواقع

موريس يونس

« الحلو المر »

لم يكن ما يحدث أمامها مقطعا من حلم عذب غريب رأته قبل ليال وظلت تتذكره فى النهارات التي تلت ولم يكن مشهدا من رواية قرأتها قبل عام وبضعة أشهر . لا ، لم يكن ما يحدث حلما مر فى اللاوعي وترسخ فى ثنايا الذاكرة ولم يكن وهما ، أزرق ـ رمادي ، جنح بالروائي يوما ما بعيدا عن الواقع وان كانت صورة متطابقة معها ، لا اختلاف فى الالوان أو الملامح او الخطوط .

كان هو وكانت هي وكان بينهما الحشد . عشرات من الاوجه المعلقة على أجساد ومئات من الأعين المفتوحة . أو نصف المغمضة وضجة تنبع تلقائيا ان هدأت لحظة واحدة فى كل حلقة تضم اكثر من اثنين ، واقفين أو قاعدين ، متوزعين فى ارجاء القاعة الفسيحة الرمادية الجدران ذات الستائر الزرقاء .

كانت قد تركت وحدها دقائق ، ابتعد عنها الآخرون ، ولما بدأت عيناها تجوبان المكان ، تحملان نظرة غير مبالية ، التقتا فجأة بعينيه ، كان وحده او هذا ما خيل اليها ، ربما بسبب البريق

الآسر المنبعث من عينيه أو ربما بسبب صمته وسط الصخب او ربما بسبب ضباب دخان السجائر الذي كان متوزعا من حوله ، مثل كتل من غيوم شاحبة زرقاء ــ رمادية ، تأبى مغادرة أماكنها، متأرجحة في دوائر غير واضحة الحدود ، غير ثابتة المعالم .

خيل اليها انه وحده وان الوجوه الاخرى ما هي الا انعكاسات وهمية وجدت لتملأ المكان أو انها كانت مجرد ظلال ضائعة الملامح تنبض بالحياة او أشياء وضعت في ترتيب معين كي لا تبقي القاعة الفسيحة فارغة جرداء ، كالمقاعد ، والموائد وكالستائر ، كان المشهد تماما ، مثلما تراءى لها في الحلم قبل ليال ، التقت عيونهما لم يحول عينيه عنها ولم تتظاهر بالبحث عن غيره ، طالت نظرتهما، وحدهما كانا ، تلاشى الآخرون مثل حلقات من دخان ، كان واقفا بثبات ، مبتعدا عن الضجيج قامة طويلة نحيلة ، متكئة بكسل على جدار ووجه شاحب وعينان تتأملان الحياة من خلال نظرة بدت من فرط شفافيتها ، انها قد اجتازت سلسلة من جبال عالية تلفها طبقات من غيوم .

بلا وعي ، تحركت قدماها صوبه وعلى مهل ، يتحرك من مكانه ونظرة عينيه ما تزال تسحبها ، ترغمها على الذهاب اليه والوقوف أمامه قائلة : « ها انذا أمامك ، فما الذي تريده مني ؟ » ولكنها لم تفعل .

ترددت واحجمت ، استدارت عنه في الحال نحو الجهة المعاكسة .

خطوتان فقط قطعتهما ثم توقفت ، احست ان تلكما العينين ما تزالان تتابعانها باصرار وتثقبان ظهرها وكأن عدسة شديدة التحدب وضعت في واجهة الشمس لتلقي كل انعكاساتها في بؤرة واحـــدة .

التفتت اليه عندما لم تقدر على مقاومة اشعة الشمس اكثر ، كان في مكانه ثابتا والنظرة الضبابية الشفافة في عينيه ، تساءلت مع نفسها ، اتراه يتطلـــع اليها أم ان عينيه شاردتان في مكان آخر جد بعيد عنها ، النظرة كانت ثابتة وكأن صاحبها لا يبصر أحدا غيرها ولا يسمع كلمة من الاحاديث التي تدور من حوله ، وحده كان ، هذا ما خيل اليها ، ووحدها انسلت اليه ، غير عابئة بما تقدم عليه قطعت القاعة الفسيحة بخطوات بطيئة ، تسارعت فيما بعد ، وكالمأخوذة توقفت أمامه بثبات ، تحركت كتفاه مبتعدا عن الجدار قليلا ، مقتربا منها قليلا .

قالت وهي تحس انها تعرفه منذ زمن بعيد :

ــ هل تتذكر رواية ، الازرق ــ الرمادي .

قـــال :

ــ اتذكـــر :

قالت :

ــ مازال ذلك المشهد راسخا في ذهني ، اللقاء الاول بين المـــرأة والرجل ، كانت تضع على كتفيها عبـــاءة طويلة زرقاء وكان يرتدي بدلة رمادية دكناء .

قـال :

ـ اتذكـر .

صمت ، ولما طال الصمت ، خطر لها أن تحدثه عن حلمها الغريب، ولم تفعل ، بل قطعت الصمت بقولها ،

ـ لنسـر معـا ،

ـ الى أيـن ؟

ـ لا تسل ، كنا معا في زمن آخر ، التقينا في الازرق ـ الرمادي، مد ذراعه اليها ، دون أن يضيف كلمة ، امسكت بها ، سارا معا ، تجاوزا القاعة الى الممـر الطويل ، انحرفت به الى اليســار ، هبطا درجات السلم القصير الى ممر آخر طويل وضيق ومعتم بعض الشيء يفضي الى حديقة واسعة ، ضائعة الاطراف ، كانت في سيرها تتقدمه خطوتين ، تعمدت ذلك لكي لا تقع عيناه عليها ويحس اضطرابها ، وكانت في حديثها ، تحرص أن لاتلتفت اليه ، سار الى جوارها ، متأخرا عنها خطوتين كما أرادت ، كانت تعرف جيدا ، وكان يعرف جيدا ، نهما بسيرهما معا ، يكسران قاعدة ثابتة ويفعلان أمرا استثنائيا هذا ما فكرت به في تلك الدقائق ، ومع ذلك واصلت السير ، مرتبكة ، تتصنع عدم الارتباك ، تفتعل الكلام ، أي كلام ، جملة تلتصق بجملة وعبارة تلحق أخرى دون أية فواصل بينها ، في محاولة منها لملء فراغات الصمت بينهما ، فالصمت لغة سرية تشي بالمشاعر وتفضحها ، حائرة وكان بدوره مضطربا ، وهو ، بالتأكيد ، كان لا يفتأ يسأل نفسه « الى أين

تقودني هذه المرأة المسحورة ، هل اواصل الطريق معها ، ما الذي دفعنا الى الانفصال عن الآخرين والسير معا على انفراد في ممر طويل وضيق مأخوذين ببعضنا الى حد الانبهار ؟ » ،

سأل نفسه المرة تلو المرة ، ولكنه ظل يتبعها ، متأخرا عنها فيما بعد ، اكثر من خطوتين ، لا بل هي التي تقدمته ، عمداً، خطوات ، مسرعة في مشيتها ، مثل انسان يحاول اللحاق بشيء يعرف انه يبتعد عنه باستمرار ، ولكنه يبقى ، أبدا ، في مرمى بصره، تساءلت بدورها مع نفسها ، هل أحس بارتباكها ، وهل ادرك معنى افتعالها الكلام وصبه في جداول متعرجة لا نهاية لها ولا فواصل ربما ادركه وربما لم يدرك ، فهي لم تسأل ، واصلت سيرها ، تشاغلت عن الفكرة ، موحية لنفسها انها قلقة نوعا ما ، لأنها لا تعرف تفسيرا لما حدث ، فما يحدث ، لا يخضع دائما لعلم المنطق ولا لقواعد الكيمياء أو الفيزياء ، انها مشاهد تعرفها جيدا، مرت بها من قبل ، فالحلم مازال عالقا ببالها والمقاطع الباقية منه، ستتوالى ، بالتأكيد ، بحذافيرها شأنها شأن المقاطع الأولى ، وهذا ما حدث ، اتسع الممر الضيق المعتم بعض الشيء فجأة أمامهما ، منفتحا على حديقة مترامية الاطراف ، مظلمة ، يتأرجح في سمائها، قمر ذهبي شاحب ، مثل ارجوحة تمسك باطراف حبالها نجوم فضية لا عدّ لها ، حديقة لها منعطفات ودروب سرية معتمة ، تتوزع فيها برك متجاورة ونافورات تتدفق مياهها متناثرة في كل اتجاه ، ونهر عريض ، تتلألأ الأضواء على سطحه ، يبدو من

بعيد مثل سراب واحة تختفي خلف أشجار عالية شديدة الخضرة ، متشابكة اغصانها بكثافة لا تصدق ، تتدلى فروعها على الارصفة ،

تقبلها بشوق وحنو وتبوح لها بصوت خفيض ، يكاد لا يسمع بسر حكايات الحب والهوى والعشق والوجد والتصوف والتعبد .

تساقطت قطرة ماء على جبينها ، مسحتها بكفها ولما تساقطت قطرات باردة أخرى على شعرها وشفتيها ووجنتيها ، مبالة اياها، اهتزت وجفلت كأنما تذكرت أمرا ، فاستدارت نحو صنوف أزهار تعرفها جيدا ، يفوح منها عطرا أخاذ ،

قال بعد أن قرر قطع صمته ،

ــ وهذه هي الحديقة بعد الممر الطويل ، اشجار عالية وورود ونرجس ونجوم لا حصر لها وقمر ذهبي ذابل .

و ضافت كأنما تتم كلامه .

ــ والماء في برك ونافورات ونهــر عريض يبدو من بعيد .

قال :

ــ هذا هو المكان .

ومثلما فعلت المرأة في زمن مضى ، انحنت هي أيضا على أزهار النرجس ، قطفت منها باقة صغيرة . مدتها اليه . أمسك بالباقة . تحسسها بأصابعه . ثم قال .

ــ تسع نرجسات فقط !

ـ وكم كان عددها ؟

ـ ست عشرة كانت • هل نسيت • مجموع أحرف اسميهما • انحنت من جديد على حوض الزهور ، اقتطعت سبع زجسمات اخريات ناولته اياها •

قـال :

ـ زهرة النرجس • ما أسرع ذبولها • انها زهرة مسحورة ، ما ان تمسك بها حتى تذوي ، الا ينتابك القلق عليها ؟

ـ القلق • ولم ؟

أجاب كالمأخوذ •

ـ تلك المرأة كانت تحبها • زهرتهما • زرع منها ذلك الرجل • كما تمنت • أحواضها باكملها ثم قبع في انتظارهـا • هبت ريح قوية ، اقتلعتها ولم تبق منها غير ست عشرة زهرة • أضافت هي •

ـ وعندما جاءت المرأة ذات المعطف الأزرق الطويل أخيـرا •

قطفت منها تسعا • أعطتها للرجل واحتفظت لنفسها بالسبع الباقيات قال مكملا :

ـ ثم توقفا أمام بعضهما فى لحديقة بعد أن اجتازا الممر الضيق ، كما فعلنا تماما • ثم ••

ولم يكمل ، توقف عن الكلام •

استعادت المرأة حلمها ، لما مدّت كفها الى وجه الرجل متحسسة عينيه وشعره فى هدأة الليل البارد ، دقائق من صمت حلت بينهما ،

رفعت رأسها اليه، مدت كفها الى وجهه، أحس بحركتها وبأنفاسها الدافئة المقتربة منه •

أبعد رأسه الى الخلف ، سقطت حزمة عريضة من ضوء القمر على عينيه وانعكست في نظـرة ثابتة ، شع منهـا بريق مذهل ، غيـر اعتيادي •

أغمضت عينيها وهي تمدّ أصابعها على وجهه • كل شيء • مضى حتى الآن • في تتابعه ، مثلما حدث من قبل ، هـو وهي والحشد والصخب والقاعة وأزهار النرجس والليل والقمر والنهر البعيد والعينان • لكنها وجمت • هنا اختل الميزان وتفجرت عناصر الكون ، تلمست بأصابعها عينيه الواحدة بعد الأخرى ، تجمدت في مكانها وهي تطلق آهة عميقة ، كانت العينان من زجاج بارد صقيل لا نبض للحياة فيهما •

توقف الاثنان عن الحركة معا ، وامتلأ سطح النهر العريض في تلك اللحظة ببريق انعكاسات مئات النجمات الباهتة ، تهتـز بينها ، في حركة غير متوازنة ، أرجوحة القمر الشاحب مكونة شناشيل مزخرفة، ذهبية وفضية، فوق صفحة المياه ، مثل فوانيس، ذابلة الضوء ، تقود بصيرين في فجر أزرق ـ رمادي ، نحـو غابة تبدت أطرافها ، تومض أنوارها على مقربة منهما •

٢٠/ شباط/ ١٩٨٩

مطر وقوس قزح

مثل قوس قزح يظهر في حياتي فجأة ويختفي • مثل قوس قزح في السماء يتشكل ، تتحدد خطوطه ثم تتداخل الوانه بعضها ببعض قبل ان تتلاشى تماما فى الأفق •

خطر هذا ببالي وانا جالسة خلف النافذة ، اتامل صفحة السماء الملبدة بالغيوم ، قلت لنفسي عندما سمعت صوت الرعد القوي الذي زرع ، كما فى كل مرة ، خوفا مبهما فى نفسي ، أتراني سأعود اليه ! ، اغمضت عيني فجأة ، كأنني أهرب من صوت انفجار سيحدث فى مكان ما ، او من لسعة البرق ووميضه •

فتحت عيني بعد قليل ، الوان متعددة تبدو على صفحة السماء ، يحل الواحد منها محل الآخر بسهولة ، تظهر وتختفي مثل لوحات فنية فى استعراض عام • أزرق فاتح ، أزرق غامق ، رمادي فاتح ورمادي غامق يتحول في دقائق الى أسود داكن ، وبعد لحظات تبزغ الوان جديدة ، أبيض شاحب ، أصفر ، برتقالي، وأخضر وبنفسجي ، رعد قوي يهز زجاج النافذة التي أجلس خلفها ، ثم تتدحرج من السماء كرات صلبة من الجليد ترتطم الواحدة بالاخرى محدثة صوتا هادرا ، السماء تتغير الوانها ، تتغلب الالوان الداكنة في النهاية وتسيطر على صفحتها ، وبعد ذلك يزخ المطر • حبات كبيرة متلاصقة تكاد كل حبة منها تتصل بالاخرى لتشكل خيطا طويلا ممدودا بين السماء والأرض •

خيط يتقطع أحيانا ثم يعاود الاتصال ، تماما كالخيط الذي يربط بيني وبينه منذ ثلاثة اعوام ، خيط رفيع غير مرئي لشدة رهافته ولكنه موجود ، يسحبني اليه كلما حاولت الابتعاد عنه بضعة أمتار ، اكثر من المعتاد .

ما الذي يجعلني أستعيد الذكرى بعد انطفائها ! أهو الحنين الدائم اليه ؟ صوته الخشن ، عيناه المتألقتان بالسواد !! ولماذا المكابرة ؟ انه موجود معي باستمرار ، ولكنه اليوم يسكنني منذ الصباح ، على الرغم من بعاده الدائم .

هكذا شاءت الظروف ، ان نلتقي ، أن نحب ، ان نفترق وأن يتذكر واحدنا الآخر كأننا لم نفترق يوما ، أيعود ذلك لأن حكايتنا ابتدأت وتوقفت ولم تنته كما تنتهي الحكايات الاخرى بشكل طبيعي ! انها أشبه بجملة ناقصة تنتظر كلمة الختام لتفي بمعناها وتصل الى من يحاول فهمها .

ما زلت أتذكر اليوم الاول ، على مائدة منعزلة كنت ، في المطعم الصغير الذي اعتدت تناول الغداء فيه على عجل ، مرتين في الاسبوع ، قبل مواصلة عملي المسائي في الشركة التي أعمل فيها ، عندما ولج القاعة ، اختفى عن عيني دقائق ، عاد ثانية ، ووقف أمامي في حيرة وهو يقلب عينيه في ارجاء القاعة حيث الموائد محجوزة من قبل الآخرين . توقفت عيناه عندي . معرفة بسيطة تربطني به . فقد التقينا ذات مرة في حفل كبير ، وبعد تردد تقدم نحو مائدتي ، فهمت ما يعانيه . ابتسمت له . ادرك

انني لن امانع في جلوسه معي • فسحب كرسيا وجلس عليه • الدقائق الاولى مضيت صامتة ، كنت مشغولة عنه بتأمل غابة استوائية • أشجار كثيفة الأوراق وزهور بالوان حارة متوحشة كأنها جلبت من خط الاستواء ، تتوزع فيها كتل من الصخور الماتئة البنية والسوداء بشكل لم اعهده في حدائق اخرى •

قال فجأة ، قاطعا الصمت ، دافعا حاجز الخجل جانبا •

ــ ما هذا الهدوء ، كل ما فيك ساكن وحزين ، العينان لا تتحركان تقريبا •

الملامح مستريحة كأنك نمت دهرا ثم صحوت على مهل •

لم أعرف بماذا أجيب غير انني قلت له على سبيل المجاملة •

ــ أحقا ، مع أن نومي قلقا ليلة أمس ، أخذت في احتساء القهوة بعد انتهائي من الطعام ، وكانت باردة كما أفضلها أحيانا ، بدأ في تناول الطعام الذي طلبه ، حانت مني التفاتة الى صحنه ، دهشت ، كان مكونا من البيض المقلي والطماطة ، ترى هل هناك من يفضل البيض وجبة للغداء ويختاره من بين عشرة أصناف أخرى !وهكذا ، بدأت أحس ان افكاري الخاصة بدأت تتعثر بوجوده معي على الرغم مني • أشعلت سيكارة • كان قد انتهى من البيض المقلي والطماطة • خجل وحياء طفوليان يسكنان عينيه ولكنه تمكن من تجاوزهما مرة أخرى

ــ نسيت سكائري ، • هل لي بواحدة

قدمت له سيكارة ، استطرد •

ـ انني أيضا أفضل هذا النوع الخفيف،يبدو أن ذوقينامتشابهان،
ابتسمت وأنا أتذكر البيض .. ذوقانا متشابهان .. وكيف ؟
ولكني آثرت الصمت وسرعان ما بدأت حلقات الدخان تجمعنا منذ ذلك الحين وظراتنا تلتقي في صفاء غريب كأنها لم تكن تعرف الاستقرار الا بتوحدها .

في الأيام التالية ، جمعتني المصادفة به في لقاءات عابرة في ذلك المطعم ، كنا فيها نتبادل النظرة الغريبة نفسها دقائق ثم نفترق وفي نفس كل واحد مناأشياء كثيرة يود لو قالها ، حتى جاء ذلك المساء ، كان الجو ينذر بالمطر منذ الظهيرة ، تأخرت في العمل لأنجز أشغالي كافة كي لا اعود اليه ثانية في ذلك الجو المكفهر .

وهكذا وجدت نفسي في المطعم الصغير قرابة الخامسة عصرا .. كان اليوم باردا .. يوم شتاء حقيقي . المطر يزخ بقوة، يصحبه رعد يزرع خوفا مبهما في صدري ، موعد الغداء قد انتهى، والقاعة شبه خالية وكان عليّ ، كما قيل لي ، الانتظار مدة من الوقت لحين اعداد الطعام الذي طلبته ، قلق وضجر تملكاني ، تأملت الحديقة من خلال النافذة واحسست انها تجذبني اليها بشكل غريب ، قمت من مكاني ، فتحت الباب المؤدي الى الشرفة المنخفضة المطلة عليها وجلست على مقعد من الخيزران موضوع في زاوية معتمة ، بدأت أتطلع في ما حولي ، الاحساس المبهم بالخوف أخذ يزايلني تدريجيا والظلمة التي أحاطت بي ، اطلقت أفكاري، ومرة أخرى ، أدرت عيني في الاشجار والزهور والصخور وتذكرته ، يالها من حياة محددة بأطر صلدة هذه التي نعيشها !

مضت الدقائق بسهولة دون أن أحس بنبض الانتظار البطيء، نهضت بعد أن استراحت أعصابي المشدودة إثر ساعات طويلة من العمل المتواصل ، استدرت عائدة الى الخلف • بضع خطـوات فقط ، ووجدته أمامي في مؤخرة الشرفة • يتوهج طرف سيكارته في شبه العتمة المنسدلة بسرعة •

هزتني المفاجأة ، كدت أصيح ، همدت الصرخة في الحال ، وكان يبتسم والسواد في عينيه يتلألأ مثل حجر ثمين داكن •

قـــال :

ــ المطر جمعني بكِ على غير اتفاق ، لم أجب ، المفاجأة شلئت لساني • أضاف •

ــ لم أتبينك في البداية ، ظننتكِ جزءا من الكرسي الذي كنت تجلسين عليه ، حتى وقع ضوء من البرق على شعركِ فتوهج بشدة • كان المنظر أخاذا ، لم أشأ التطفل عليه •

توقف عن الكلام لحظة ، ثم أضاف بصوته الخشن المليء بالحنان،

ــ كيف حالكِ ؟

ــ خائفة من شيء مبهم •

التقت نظراتنا في صفاء غريب كأنها لا تستقر الا بتوحدها معا •

قـــال :

ــ ما حدث كان سريعا مثل البرق ، مثل الحلم ، وقلت •

ــ البرق يموت بسرعة والحلم سرعان ما ينقضي ويتلاشى •

ـ ولكننا نستمر فيه •

ـ نستمر فى ماذا ؟ عن أي شيء تتحدث ؟

ـ آه ، عن الحلم وعن المطر • لماذا تتجاهلين الحقيقة • انها واضحة بالنسبة لكلينا •

ابتعدت عنه خطوات ، لحق بي ووقف خلفي وهو يردد بصوت خافت •

ـ لماذا تتجاهلين الحقيقة • انها حالة غير اعتيادية • وعلينا أن نديم الشعلة ان اختلج القلب بقوة وتوهجت الروح ، بامكاننا الاستمرار فى الحلم •

ـ تعني أن نزيف الواقع ونعيش في الوهم •

ـ لا بل نمزجه بالواقع ونحمل اليه شيئا من وهج الروح ، أكاد أجزم ، اننا سنكون معا باستمرار حتى أن باعدتنا الايام وأجواء الحرب وما فيها من قلق وترقب وانفعالات مؤثتة وانتظار ممل • !

وباعدتنا الأيام حقا • أشهر كثيرة مضت وهو غائب عني ، يتصل بي أحيانا ، وعندما ينقطع الصوت عني زمنا ، أبدأ بتسقط اخباره ما زال في القاطع الجنوبي ، انتقل الى الشمال ، شاهده أحدهم فى نادٍ مع مجموعة من الأصدقاء ، غيّر سيارته القديمة، انه بخير ، يدخل المعارك الساخنة ويخرج منها سالما مثل شعرة من العجين ، مجرد أخبار متفرقة لا غير ولكنها كانت كافية لبعث الراحة فى النفس فى تلك الايام •

ومضت الاشهر ، أكثر من عام مضى دون أن نلتقي وفى ذات مساء كنت مدعوة الى حفـل كبيرة ، الفندق كان يموج بالآخرين ، تذكرته بشدة عند جلوسي مع عدد من الاصـدقاء فى نهاية القاعة ، وفجأة سمعت الصوت الخشن الذي أعرف نبراته جيدا ، اختلج القلب بشدة ، أيكون هو بعد كل هذه الايام ، توقفت خطوات خلفي ، قام أحد الاصدقاء و بادله التحية ..

وسرعان ما أنضم الينا .. لم ارفع بصري اليه فى الحال، كنت فى اشد حالات الارتباك ، أهو حقا انسان حقيقي موجود بكيانه معي ، أم انه مجرد شبح فى الخيال ؟

أخذ يتحدث بعد صمت ، التقت نظراتنا .. الصخب من حولنا كان كبيرا ، يبدد كل الاحاديث ويبترها أو يقطعها اجزاءا ومرة اخرى تلك الكلمات المغلفة بحنان زائد .

ـ كيف حالك ؟

ـ لا بأس ، وأنت ؟

ـ لا بأس أيضا ، الحياة تدور ونحن ندور معها دون اختيار أحيانا

ـ ولكن اين أنت ؟

ضحكة قصيرة ، أردف بعدها ،

ـ أنا فى كل مكان وفى كل الجبهات والمعارك ، من سربيل زهاب الى بنجوين ومن البصرة الى الجبال الشاهقة ،

ضحكة قصيرة أخرى امتصت من توتره الشيء الكثير ، ثم

قـال :

ـ فى الشهر التالي ستتحسن ظروفى . سأكون قادرا على الاتصال بكِ باستمرار . لم يبق الا القليل سأنقل الى بغداد نهائيا .

سكت قليلا ثم تساءل :

ـ ماذا ، أما زلتِ معي بمشاعركِ ؟

قلت وأنا أفتعل ضحكة وأحاول استعادة كلماته :

ـ علينا أن نديم الشعلة ان اختلج القلب بقوة وتوهجت الروح. وافترقنا على أن نلتقي بانتظام .

ولكننا ابتعدنا عن بعضنا من جديد ، مضت أشهر أخرى ووجدته ذات يوم أمامي فى مطعم صغير لأحد المسارح ، كان واقفا يحتسي القهوة ، اتجهت نحوه بعد أن تمالكت نفسي وقلت :

ـ أنت ! ستة أشهر مضت .

قال وعيناه يلمع السواد فيهما لثقل المفاجأة .

ـ لا ، خمسة أشهر ونصف .

ـ أتراك تحسب الأيام مثلي ، كنت أعتقد انني أصبحت أمرا منسيا .

ـ تذكري ، الشعلة .

ـ وحتى متى ! أخشى عليها الانطفاء .

ـ الا تقدرين ظروف عملي . من جبهة للقتال الى أخرى . الوهج

المتألق هناك بشدة ويكاد ينسيني كل شيء ، انه يستهلكني تماما .

ـ وماذا عني ؟

ـ لم يبق الا القليل وتستقر مشاعرنا فى بيت آمن جميل .

ـ اانتظر .

ـ بل ننتظر معا ، فى الاجازة المقبلة سأتصل بك وتتفق على كل شيء .

ولم يتصل بي ، والايام تمضي ، والوهج يكاد يتلاشى ليصبح مجرد ذكرى والجملة الناقصة في انتظار كلمة الختام ، وشبه يقين فى صدري اننا سنلتقي مرة اخرى وعلى غير انتظار .

الحر كان شديدا ، والعرق ينز بغزارة ، وأنا فى ذلك المطعم بانتظار الطعام ، عندما أمتدت يد" من الخلف لتضع قدحا من القهوة أمامي .

كف أعرفها جيدا ، أعرف خطوطها المنحرفة وتضاريسها الخشنة وصوت كانت نبراته تبهجني وتثير فى نفسي كل مكامن الفرح واللهفة .

ـ قهوة باردة بعض الشيء ، كما تفضلينها أحيانا .

ـ أنت وبعد كل هذه الأشهر .

ـ بالتأكيد أنا الغائب الحاضر .

ـ لا بل الغائب باستمرار ، ومزج الواقع بالوهم يا أيها السيد، لم يعد يجدي نفعا .

ـ عن ماذا تتحدثين ؟

ـ ولماذا تتجاهل الحقيقة .. انها واضحة . لقد استهلكتنا هذه الأيام وما فيها من توتر وانتظار مشوب بالمرح ومليء بالانفعالات، تصاعد المشاعر وخفوتها أو انكسارها .

لماذا نزيف الواقع . انه احتضار بطيء .

لم يجبني في الحال ، ظل مترددا ، بدأت اتحدث من جديد ، ولكن بهدوء هذه المرة .

ـ دعنا نعترف بالفشل . دعنا نعترف اننا حاولنا وفشلنا .

ـ لنستمر في المحاولة ، الى مدى أبعد .

ـ لا كفى هناك ما يشدك اليه ويطمس ما عداه ، اليس كذلك ؟

ـ لا أدري ،

ـ ولكنك تدري ،

سقطت ستائر كثيرة ثقيلة من الصمت بيننا، وكان الحر آنذاك شديدا يوم صيف حقيقي عرق غزير ينضح من الجبين والرقبة ويتساقط على الصدر والظهر مثل حبات مطر لا يصحبه صوت رعد أو لسعات برق ولا خطوط منحنية لقوس قزح ولا حتى ذلك الخوف المبهم في النفس ، كل شيء كان ساكنا مثل ماء راكد في بحيرة آمنة .

(تموز ١٩٨٩)

في المـرآة

أنا وحدي .. وعليّ أن أبقى هكذا زمنا لا أعرفه ، زمنا استطيع تحمله فأنا في الحقيقة ، عرفت ، على مرّ الأعوام ، كيف أمضي الوقت بل اقتله بالصمت ، انها حرفــة تمرست فيها منذ ذهابه الى الحرب ، أو سوقه اليها ، أصبحت وحيدة منذ ذلك اليوم ، ساعات الصباح تمضي بسهولة ، لا أكاد أحس بها ، أما المساء والليل فهما شديدا الوطأة عليّ ، أنوء بأثقال الوحدة حتى يتهدل كتفاي وجفناي في آخر الليل وتنتشر خطــوط قاتمة على وجهي ويبرز انفي بعد تخاذل الملامح وانهزامها الواحد تلو الآخر اما استار العتمة والصمت ، عند ذلك فقط ، تبدأ عيناي بالانغلاق تدريجيا .

أتنهد مرتاحة وأنا اردد مع نفسي للمرة الخمسين او الستين او المائة « ها قد انقضى يوم طــويل آخر ، وقد يكون الغــد مختلفا » .

في صبيحة كل يوم من تلك الايام ، كان النشاط يتسلل الى كياني بعد ساعات من النــوم ، أقوم من فراشي دون تلكؤ أو تردد ، وبعد تناول افطار خفيف ، أبدأ في ممارسة الأعمال البيتية، انظف بيتنا الصغير ... الغرفتين . الصالة ، كنت أنظف كل شيء فيه واجلو الغبار عن كل قطعة فيه . وبعد الانتهاء من التنظيف واعداد الطعام كنت ادلف الى الحمام ، أزيل عن جسدي الغبار

واللزوجة وقطرات العرق . وكنت ، في خلال ذلك كله ، اتذكره ، كأنه لم يفارقني قط بل كأنه سيأتيني بعد كل لحظة ، سيفتح الباب ويقطع الصالة بخطـوات خفيفة ويضمني بين ذراعيـه ، وأضع رأسي على صدره ، غير مبالية بعرقه وغباره ، كان معي باستمرار ، بل انني غالبا ما كنت أتحدث معه ، بيني وبين نفسي، أو بصوت مرتفع احيانا . وفي كل يوم، في اثناء غيابه ، كنت أحرص على وضع قدح الشاي الخاص به ، على المائدة الصغيرة في المطبخ وأفعل الأمر نفسه خلال تناولي الغداء . وكنت في أثناء الافطار أو الغداء ، أفتعل المواقف احيانا ، اخاصمه مرة ولا ابادله الكلام او امازحه في مرات أخرى وأعاتبه وانا اتطلع الى مقعده الفارغ .. الممتلىء .

كنا نحب بعضنا ، والعامان اللذان مضيا على زواجنا لم يمتصا من مشاعرنا شيئا ، بل أضافا اليه الكثير من الالفة والمودة ، كنا في خلال العام الاول من زواجنا ، نمضي معا ساعات المساء بعد عودته من العمل ، لا نكاد نفترق الا لماما ، سواء كنا في البيت أو خارجه ، وكنا نحس أن الزمن يكاد يطيـر من بين ايدينا ، نتمسك به في آخر الليل ، ونملؤه مسرة . تلك المسرات الصغيرة انقضت تدريجيا بعد ذهابه الى الحرب .

والتغيير الذي طرأ علينا ، أو عليه ، بشكل خاص ، لم يحدث دفعة واحدة ، بل حدث خلال أشهر ، أو هذا ما أحسست به .

أشياء صغيرة ، كنت انتبه اليها بين اجازة وأخرى ، افكر

فيها بضع دقائق ثم اطردها عن بالي ، كي استمتع بتلك الايام القليلة التي كان يمضيها معي بعيدا عن الجبهة ، والاشياء الصغيرة تلك تراكمت فيما بعد ، وأصبحت أكثر وضوحا مع التغييرات الكثيرة التي بدأت تطرأ عليه بشكل لا يقبل التأويل او الشك ، اذ اصبح بعد أشهر معدودات انسانا آخر يكاد يبتعد عني .

الآن ، وأنا في لجة الصمت العميق الذي يحيطني ويسكنني بعد أن هدأت كل المشاعر والاحاسيس التي كانت تهيجني من قبل، مثل بركان يظل يفور بما في أعماقه ثم ينفجر ويسكن وتنطفيء كل جذوة للنار فيه ، الآن ، أستطيع الاستماع الى صوتي والاصغاء اليه لأتبين ما حدث . أتذكر ان الأمر بدأ من عزوفه عن الكلام ، فقد أخذ يفضل الصمت والشرود ، يكاد يكون ذاهلا عما حوله، وكلما قطعت دائرة الصمت التي يغلقها باحكام حول نفسه (وكثيرا ما كنت أفعل ذلك) ، كان يفز شبه مذعور ، وتتشنج عضلات وجهه ، يتطلع اليّ باستغراب ونظرة خوف تملأ عينيه .

وكان في تلك الأيام ، يطيل النظر بوجل الى وجهه في المرآة، يقف أمامها ، يقترب منها ، يبتعد عنها ، محدقا ، على الدوام ، في عينيه وملامحه الأخرى التي كانت قد أخذت في الشحوب . كان مرة يبتسم لنفسه أو تتقلص بحدة ملامحه في مرة أخرى . وعندما يدرك في لحظة ما ، اني أرقبه ، يبتعد عن المرآة متشاغلا عني وعنها بأي شيء آخر .

وذات ليلة ، تأمل وجهه في المرآة وبعد أن حدق فيها مليا ، التفت اليّ فجأة ، على غير عادته ، وسأل :

ـ ما الذي قد تغير فيّ ؟
تطلعت اليه واجمة ، وظللت على حالتي تلك ، لا أعرف بماذا اجيب كرر السؤال نفسه ،
ـ ما الذي تغيّر فيّ ؟
ـ ما الذي تغيّر فيّ ؟
قلت :

ـ وماذا ترى ؟

ـ لا ادري ، إني أشك في نفسي ، ينتابني احساس حاد بأنني تغيرت ، انني متأكد من ذلك •

ـ وفي أي شيء ؟ سلوكك وتصرفاتك مثلا ؟
هز رأسه نافيا وهو يقول :

ـ لا ، لا اقصد السلوك •• اقصد الوجه والملامح ، اليس كذلك ؟
تأملت وجهه مليا ، كما يفعل هو ، هززت رأسي بدوري قائلة :

ـ لا أدري •• أعني •• ربما اجد بعض الشحوب في وجهك • لكنه امسك بمرآة صغيرة كانت على مقربة منه ، تطلع فيها وهو يردد بصوت يكاد يسمع :

ـ لقد تغيرت ، هذا شيء أكيد ، ليس الشحوب ما اعنيه بل انني أحمل وجها آخر •

ضحكت وأنا أحس بقربه مني في تلك اللحظات ، واقتربت منه اكثر وانا احتضن رأسه بين كفي ثم اسنده على صدري •

ـ ولكنه وجه أفضل .

ورفعت رأسه الي ، قبلته من عينيه ومن جبهته وأنا اقول :
ـ ساحبك حتى لو تغيرت الى الأسوأ . هل تسمع ، ساحبك
لا أدري ان كان قد اقتنع بكلامي ام لم يقتنع ، فهو لم يرد
عليَّ بكلمة ما ولم يستجب فيما بعد لمعاتبتي اياه ، بل أدار
ظهره لي وخرج من البيت دون ان يخبرني بوجهته .

وفى لجة الصمت والهدوء ، اغرق فى الماضي ، واتذكر إنه
فى اجازاته ، الأخيرة ، اصبح حديثه (ان تكلم) لا يدور إلاّ
عن الحرب ، بينما كان فى خلال أشهر طويلة ، ينبذ ذلك الحديث
كلما تطرقت اليه ويتجاهل أسئلتي الكثيرة ولا يجيبني الاّ
بكلمات مبتورة .

وكثيرا ما كنت أسأل :
ـ ما الذي تفعله في الجبهة ؟
ـ كالمعتـاد .

ثم يصمت كقطعة الحجارة ولا يحدثني عن تلك الامور التي
أصبحت ، با لنسبة اليه ، كالمعتاد .

وأســال :

وكيف يمضي اليوم معك هناك ؟
ـ كالمعتـاد .

وأتجرأ واقطع صمته الكئيب .
ـ وما هو المعتاد ؟

ويصرخ فى وجهي فى كل مرة :

ـ أوه .. أنتِ كثيرة الاسئلة الا تعرفين ما هي الحرب .. الا تقرأين عنها ! الا تشاهدينها مساء كل يوم على شاشة التلفزيون؟
هكذا كان يفعل في الاشهر الاولى ، ولكنه ، اخيرا خرج عن صمته وأحدث ثقبا فى كيسه الثقيل الذي كان يحمله على ظهره وبدأ يتحدث عن الحرب ، بل يثرثر دونما حجة الى أسئلتي الكثيرة وكان فى تلك الأمسيات يحتضنني بمحبة ، ثم يضع رأسه على صدري ، ويندفع فى حديث طويل لا ينقطع عن النار واللهب والدخان والقذائف والشهداء والأسرى وحالات الانهيار النفسي التى تنتابهم فى لحظات ضعف مدمرة للروح والجسد .
وكنت فى كل مرة استمع اليه دون أن أقاطعه الا نادرا .

احتضن رأسه الملقى على صدري وأداعب شعره القصير بحنان زائد ، وكان صوته ، يرتفع أحيانا خلال الحديث الطويل أو يتهدج وترتجف نبراته ويخفت مثل موجة امتدت ووصلت مداها ثم ارتدت لتتراجع وتنحسر . فتموت الكلمات المتعثرة على شفتيه قبل أن تصل إليّ ،
وكنت فى لحظات الانحسار تلك ، أشده بحنان إليّ ، يدس وجهه فى فتحة ثوبي ، أحس ملمس بشرته الخشنة على رقبتي ، والتصق به كأنني اريد الامتزاج به .
قال لي ذات مساء وابتسامة جذلى على شفتيه وهو يتطلع فى المرآة :
ـ هذا أنا ، انني لم أتغير ، العينان عيناي والوجه النحيل والفم والشاربان ، كل شيء فى مكانه ، لم يزل كما كان .

قلت :

ـ هذا ماذكرته لك مرارا ٠

ـ ولكن ٠٠ !

ـ ماذا ٠٠ هل عاد اليك الشك ؟

ـ انه لم يتبدد قط ، يتمدد في داخلي باستمرار ، قد يتقلص مثل كتلة من حديد منصهر ، يتوقف حينا عن السيلان ان صُبّ عليه ماء بارد ، ولكنه سرعان ما يجري متى ما استعاد درجة حرارته ٠

وفي الحقيقة ، كنت أحس بالتغيير الذي طرأ عليه ٠ ففي داخله كان حديد منصهر يجري ويفور ويصليه بالعذاب ،

كانت عيناه تضيقان في بعض الساعات وتذبل النظرة فيهما وكأنه يتطلع لي ما حوله من خلف ستارة من ضباب كثيف ، وكانت تلكما العينان (ولشدة ما كنت أحبهما) ، تبرقان في ساعات أخرى ويشع منهما بريق حاد وخاطف يتأرجح على صفحتهما كومضة البرق قبل أن يتوارى خلف سلسلة من غيوم دكناء مكفهرة ٠

لكنه لم يكن مكفهرا على الدوام ، بل كان في بعض المرات يعود الى نفسه ، رقيقا ومرحا ، يلقي على سمعي كل الطرائف التي حدثت له أو رفاقه وكل ما سمعه منهم في خلال الايام التي أمضاها هناك ٠

مرات فقط ٠ أما الأخريات فكان عليّ تحمل ثقله٠ وهكذا تحولت في أيام اجازاته الاخيرة الى جدار يتكيء عليه ، كلما صعد المد أو انخفض ووجد النفس الخاوية ٠ ويئن ذلك الجدار متوجعا

ولكنه في كل مرة ، يتحمل ثقله ووزره . واني لي رفضه ، فأنا ان ابتعدت عنه ، تصدع مثقلا وتفتت الى اجزاء .

أنا وحدي ، وفي لجة الصمت والسكون اتذكر انه في اجازاته ما قبل الأخيرة ، وبعد ان حيرتني طباعه المتقلبة واعتياده الخروج وحده ساعات طويلة ، قلت له :

ـ بدأت بالابتعاد عني وعن بيتنا .

ـ لا تظني في الامر شيئا ، أجواء بغداد التي أصبحت شبه غريب عنها بدأت تجذبني اليها في الاجازات : الانوار ، الصخب والجمال، الشوارع ، الفنادق والضحكات التي ترن بين جدرانها والبذخ المتجلي في الوجوه والاجساد . (عندكم) مظاهر نسيناها ، وهناك لكل شيء حساب ، وبضعة أمتار فقط هي مجال حركتنا ، وكما قلت لك لكل شيء حساب: الضوء والكلام والغناء وحتى الصمت، أنا هناك انسان آخر .

انتبهت لعبارته الاخيرة ، لأنها زرعت في داخلي خوفا مبهما، لكنني تجاهلتها عمدا ، وافتعلت ضحكة وأنا اتساءل :

ـ وما الفرق بين الانسان الذي أعرفه والآخـر الذي هناك ؟

ـ لن تفهمي ما ساقول ، أنا هناك أكثر وضوحا مع النفس .

عاملان يتحكمان فيّ . الأرض التي عليّ الدفاع عنها ونفسي التي أحميها من الفنـاء . والعاملان يمتزجان ببعضهما في كل الأوقات ويدفعانني باستمرار الى ممارسة أمور كنت ارتجف ان طرأت مجرد أفكارها على بالي .

وقال لي :

ـ هل تدرين أن الخوف لا يتسلل الي عندما تحتدم المعارك ، بل انني أخشى أيام الجمود ، حين يتحتم علينا البقاء في حفر تحت الأرض ، لا نفعل غير الانتظار بصمت ، بعد أن ينفد منا الكلام ، صمت نقطعه أحيانا بكلمات قليلة لا تعني شيئا ، وعندما يهدنا التعب نغفو ونحن نحس ان خلايا اجسادنا المرهقة مثقوبة بابر حادة رفيعة .

وقال لي في مساء يوم آخر :

ـ في نهارات الصمت ولياليه تلك (لاحظي ان اصوات المدفعية الثقيلة لا تعرف الصمت ابداً) ، ينفجر احدنا في ضحكة جنونية او في بكاء متشنج او يقوم من مكانه في حركة هستيرية يبغي الصعود الى سطح الارض . عنـد ذلك تنتهي حالة الصمت والترقب التي تلفنا ، نتحرك ، وقد يقوم واحد منا في الاقل لوضع حد للحالات شبه الجنونية ، كيلا تتسلل عدواها الينا ، وهي تتسلل بالتدريج .

وقال لي ايضا :

ـ هناك أعرف من أنا وماذا اريد ، ان أقتل او أُقتل ، اما هنا فحالة الوضوح تتبدد ، الطمأنينة الموجودة عندكم تملأ نفسي بالأسئلة وتشدني الى البيت واليك وحياتنا الهادئة والمسرات التي كانت . اني أخشى هذا الانشداد .

حاولت أن أقول له شيئا ، لكنه أسكتني وظلت الكلمات تتدفق من فمه :

ـ لشد ما أخشى هذا الانشداد ... أكاد أنشطر الى جزئين .

وضحك بصوت عال وملامح وجهه أخذت أقصى تشنجاتها ، داهمني الخوف مرة اخرى وأنا أرى عينيه تبرقان بذلك الوميض الحاد .. لم الحظ عليه أمرا غريبا عندما دخل البيت في اجازته الاخيرة ، غير انه كان في غاية الشحوب. هكذا بدا لي لما استقبلته . وجه بلا لون تقريبا ، ذكرني في الحال بوجوه الممثلين اليابانيين عندما يغطونها باقنعة ثقيلة بيضاء ، فتبدو شاحبة تماما بل ميتة .

وكان قناعه الصفرة والصمت ، لم يتحرك من مكانه في اليوم الاول . ظل قابعا على كرسيه في الصالة ، يحرق سيكارة إثر أخرى، متجاهلا وجودي ولهفتي .

وفي اليوم الثاني فعل الامر نفسه ، لم يتزحزح من مكانه الا لقضاء حاجيات ضرورية مكتفيا بتناول وجبة غداء خفيفة ، وكذا فعل في الايام الاربعة التالية .

وفي اليوم السابع ، أمسك بالمرآة ، تأمل وجهه فيها ، تقلصت ملامحه ، ازداد شحوبا بل انطفأ لونه

قلت له :

ـ ما الذي حدث ؟

لم يتجاهلني ، بل أجاب كمن يحدث نفسه ،

ـ لقد تغيرت بكثيرا .

وقات وأنا أرقب خطوط وجهه المتوترة بشكل قبيح :

ـ أنت تضخم الأمور وترسم صورة لحالتك ، فيها الكثير من المبالغة •

قـال :

ـ وماذا تعرفين أنت عن حالتي !

اقتربت منه ، أحاول احتضانه كما كنت أفعل فى لحظات تدفئته، استكان لي برهة ، لكنني لما بدأت أسحب المرآة من بين اصابعه، تشنجت عضلاته قابضا عليها بقوة غريبة ،

رفع رأسه الي ّ فى تلك اللحظة ، ولمحت فى عينيه تلك النظرة المخيفة ، سحبت بقوة أكبر ، تمسك بها ، فصحت به :

ـ هل جننت ؟ انها مجرد مرآة !

قـال :

ـ بل انها الحقيقة •

كانت يده ما تزال ممسكة بالمرآة ، ابتعدت عنه ، برقت عيناه واتسعتا ، رفع يده وقذفني بها ، فتكسرت قطعا صغيرة متناثرة وامتد جرح طويل على صدري ، وتدفق الدم بيننا ••

آذار

لسعة البرد في آذار تكون أشد فالمرء في خلاله لا يتوقع بردا بعد أن يكون قد هيأ نفسه قبل أسابيع لمقدم الربيع وما يصحبه من حالات جديدة ، وبدأ يتخلى عن ملابسه الصوفية الثقيلة • وأنا في الواقع ، حشرت جزءا كبيرا منها في حقيبة جلدية كبيرة ثم اغلقت عليها باب المخزن الصغير وكأن علاقتي بها قد انتهت تماما •

لسعة البرد • غير المتوقعة هذه ، واجهتني في اللحظات الاولى لخروجي من البيت ، وقفت حائرة ازاءها ، هل أعود الى المنزل كي أتدثر بشال أم ان الأمر لا يستحق هذا العناء وأن أشعة الشمس سرعان ما تمتص هواء الصباح البارد ، (مشيعة الدفء في كل مكان) ، رددت العبارة الأخيرة بسخرية ، فهناك بقعة في نفسي لن يلجها الدفء ولن تبيدها أشعة الشمس في أول الربيع، ذلك هو قلبي • الذي غدا صلبا وباردا مثل سلسلة المفاتيح المعدنية التي أمسكها بين أصابعي ، بعد أن لملمت الشوائب التي كانت عالقة به ووضعتها جانبا وكأن علاقتي بها قد انتهت •

خطواتي في الشارع العريض كانت متسارعة ، اذ كنت قد تأخرت عن موعدي المعتاد والساعة كانت تشير الى السابعةوخمسين دقيقة ، ويعني ذلك ان الفرصة قد تضاءلت أمامي للحاق بالدوام ، الدقائق التي تعاقبت كانت بطيئة وثقيلة وفيها كنت اتطلع الى

ساعتي مرات عديدة في الدقيقة الواحدة ، وطالت وقفتي في موقف الحافلة ، وعندما تجاوزت الساعة الثامنة وعشرين دقيقة ، تملكني شيء من الاضطراب وقد ادركت أن كل الاعذار والتبريرات التي سأقدمها في الدائرة التي أعمل فيها لن تنفع ، وأن اسمي قد أدرج ، بلا ريب ضمن الغائبين هذا النهار ، حاولت مجاراة القلق الذي انتابني بفكرة طرأت على خاطري : لم لا أمنح نفسي اجازة خاصة أمضيها بعيدا عن الدائرة وأوراقها ، الهواء البارد أنعش أفكاري .

تنفست بعمق وأنا أرقب الحافلة ، شبه الخالية تتهادى من بعيد . وقد اتخذت قراري ، ساذهب الى الاسواق الشعبية في شارع الرشيد وأتأمل محتوياتها .

صعدت الى الحافلة ، واتخذت فيها مكاني المعهود ، قرب النافذة ، في الصف الثالث من المقاعد ، وعندما بدأت بالسير ، تحركت أفكاري منطلقة من اسار الساعة والدوام .

الشارع خال ، واوراق الاشجار تبدو لي مغبرة بسبب قذارة الزجاج ، فامطار اليومين الماضيين قد غسلت كل الأشجار ونفضت عن أوراقها الغبار ففي آذار تمتزج الفصول : مطر وغبار ، ثم مطر وحرارة مفاجئة ، ثم ريح شديدة البرودة ، تعيدنا من جديد الى الشتاء وايام تشرين وكانون .

تطلعت من خلال الزجاج ، صف من الشجيرات ، تختفي خضرتها تحت ثلة من عناقيد ، زهور صفراء بهيجة اللون ، وامرأة

عجوز تحمل كيسا من الخبز ، (اليس لها من يتولى عنها الشراء ويريحها من عناء الخروج صبحا ؟) .

وطفل وضع حقيبته جانبا ، واخذ يدحرج حجرا على الرصيف (لعله قد تأخر عن الدوام مثلي) أدرت عيني في ما حولي ، علني أجد نافذة أخرى ، يمنحني زجاجها النظيف ، صورة حقيقية بألوان لحياة ،فلم أجد ، كلها كانت متسخة،تضفي على الحياة لونا رماديا ، وهكذا بقيت فى مكاني ، أحدق فى الخارج ، واسمه يقفز على بالي فجأة .

قبل ثلاثة أيام كنت فى غرفتي ، وحرارة الجو المفاجئة دفعتني الى التوجه نحو النافذة كي أفتحها ، وما ان جذبت الستارة السميكة جانبا ، حتى رأيت أحرف اسمه مكتوبة أمامي بوضوح على زجاج النافذة ، (أ . ز . هـ . ر) وتذكرت عادة قديمة في أيام البرد ، أقف خلف النافذة ، اقترب من زجاجها ، بل اكاد التصق به وانفخ بفمي حتى تتشكل بقعة مضببة ، أمرر سبابتي عليها وأنا اخط الاحرف اياها ، مرات كثيرة كنت اكرر تلك الحركة، والاحرف التي كانت تظهر فى كل مرة ، سرعان ما تمّحي او تتلاشى بعد قليل ، فكيف بقيت هذه على حالها ، الغبار وذرات التراب هما السبب ، يلتصقان بالزجاج ويكونان عليه طبقة خفيفة جدا ، لكنها متماسكة ، وعندما كتبت تلك الاحرف عليها ذات يوم ، انحفرت الخطوط فيها ، وكانني لحظتها كنت اكتب على قطعة من الطين ، فبقيت مساراتها نظيفة ، بقيت أحدق فى الاسم ، متى كتبته يا ترى ، بالتأكيد منذ زمن طويل ، عندما كنت اكتب تلك

الاحرف الاربعة فى كل مكان على الاوراق والجدران وزجاج النافذة ، أزهر ، الطيب ، الرقيق وازهر الممتليء حنانا ، وازهر القوي دون تردد وازهر ذو الذاكرة الفارغة ، فأي منهم هو أزهر الحقيقي ، واي منهم عرفت ، ام تراه رجلا يشبه شهر آذار تمتزج فيه كل هذه الصفات وهو المحصلة المعتدلة للشتاء والربيع والصيف والخريف .

فهل بالامكان فصل الغبار عن ذرات المطر أم هبة ريح عن البرودة التي تبعثها في الاجساد ! أستطيع أن اجزم بالنفي واقول انه كان كل هذه التناقضات ، قد يغلب فيه عنصر على آخر أحيانا، لكنه محصلة كل هذه الامور ، فهو ذرة الغبار وقطرة المطر ، وهو الريح والبرد وشعاع الشمس والدفء ، أتذكر انني فى اليوم الاول الذي رأيته فيه لم يترك في نفسي أثرا ، وكان ذلك لدى التقائي به فى مركز البعثات ، حين كنا نقدم اوراقنا مع عشرات من غيرنا ، آملين الحصول على فرصة للالتحاق بزمالة دراسية فى عدد من الموضوعات المعينة ، وفي الحقيقة المرء لا يهتم في مثل هذه اللقاءات العابرة بالوجوه التي يلتقيها ، انهم مجرد اشكال وأجساد تتحرك ، بل انها تبدو ، فى بعض الاحيان ، متشابهة الخطوط لا معالم خاصة بها ، والمصادفة وحدها جعلتنا في اليوم التالي نتوقف عند بعضنا ، بل دفعتنا الى الحديث .

كان فى ذلك اليوم واقفا بالقرب مني ، يبحث فى جيوبه عن شيء ما ، التفت نحوي قائلا :

ـ أأجد لديك قلماً ؟

ـ بالتأكيـد .

ناولته قلمي ، وضع اوراقه على منضدة قريبة ، ثم وقـع على واحدة منها وأعاد لي القلم ، وهو يقول :

ـ تأكدي من أن اوراقك كاملة ، وإلا فانهم سيعيدونها اليك . يجب أن توقعي على احدى الاستمارات مرتين .

ـ اية استمارة ؟

ـ سـأريك .

أخذ ملف أوراقي ، قلب فيه ، ثم أشار الى استمارة معينة :

ـ هذه ، انهم هكذا ، يعقدون الأمور ، عشرات التوقيعات هنا وهنـاك .

كنت أوقع على الاستمارة ، وكان فى خلال ذلك يتأملني ، ثم تساءل :

ـ ما اسمك ؟ دعيني احزر .. نجاة ، نجية أو نجمة !

ضحكت ،

ـ لا .. أسمي نجـد

ـ اسم غريب

ـ وما اسمك ؟

ـ أزهـر

ـ اسم غريب

وضحكنا معا في لحظة واحدة والتقت اعيننا ، (عيناه شديدتا السواد في بشرة شاحبة) .

والتقينا مرات اخرى في مركز البعثات ، ووجدنا انا نقترب من بعضنا اكثر ، وساعدت على ذلك ، أمــور عديدة ، ميولنا وأفكارنا المشتركة ، وأصبح أزهر خلال أيام معدودات شــيئا اساسيا في حياتي ، بل ان تأثيره عليها طمس كل أثر عداه .

كان ازهر قد تقدم للالتحاق بدورة لدراسة تأثيرات البيئة على الانسان وكنت تقدمت لدراسة الكومبيوتر وفى غمره تلهف واشتياقات للقاءات تلك ، لم نفكر مليا بالمفاجآت التي ستحملها لنا الأيام القادمة .

وهكذا كانت نتيجة التصفيات النهائية للأسماء المقبولة ، صدمة عنيفة بالنسبة لنا ، فقد قبل طلبه في حين رفضت ، وكان علينا ، فى خلال الأيام التالية ، تقبل الوقع الجديد والذي يتطلب منه الاستعداد للسفر فى غضون اسبوع واحد لا غير .

وهكذا ودعت أزهر ، وكان لقاؤنا الاخير هادئا ، يسوده صمت شفاف ، تبادلنا خلاله بضع كلمات خاوية ووعود بدوام الود وتبادل الرسائل وغيرها من العبارات التي يتبادلها آخرون فى مثل موقفنا فى كل زمان ومكان ، ولكنها لا تعبر تماما عما فى القلوب من حزن .

ورحل عن بغداد وازددت تعلقا به وبدأت منذ الاسبوع الأول من غيابه ، رحلتي فى عباب مشاعر قوية تجاهه ، كان يعيش فى داخلي ويتحرك معي والكلمات التي تبادلناها تضخمت وملأت وجداني والساعات التي جمعتنا انحفرت فى الذاكرة صورا تأبى

الذبول بفعل الأيام المتكررة المتعاقبة ، محتفظة بطراوتها وحيويتها .
كنت أتذكره كما فى اللقاء الأخير ، قامة طويلة ناحلة مثل عود من قصب ، عينان شديدتا السواد ، بشرة سمراء شاحبة وشعر أسود تلتمع فيه شعرة بيضاء واحدة . وعندما انقطع عني وبدأت اسمع أخباره من الناس أعرف صلتهم به ، بدأت أسمع انه بخير وانه آثر عدم الارتباط بفتاة كان يحبها بسبب المتغيرات الجديدة في حياته وان الأيام القادمة ستقرر كل شيء ، ومرت الأشهر وانتهى العام وسمعت انه قد عاد الى بغداد والى عمله . لم أحاول الاتصال به ، فقد سكن الوهج وهدأ ، على الرغم من تواصلي الداخلي معه . وكنت حين تستبد بي الذكرى امنح نفسي اجازة من العمل .

استقل الحافلة التي تحمل رقم (٧) والتي كنا نستقلها بعد كل عودة لنا الى المركز ، (وكان يشير عند دورانها في نهاية خط سيرها ، الى مبنى رمادي ويقول ، هنا أعمل .. مركز دراسة البيئة) .

وأدور معها حول المبنى ، ثم أعود الى البيت ، وكانت تلك الرحلة ، عبر الماضي ، شبه المنتظمة ، تمتص جزءا من انفعالاتي وتبددها تدريجيا ، لأجد النفس خاوية اثرها ، ومع مرور الايام تقلصت جولاتي واجازاتي وخفتت المشاعر المتوهجة بعد أن تحولت الى كتلة باردة ، برودة سلسلة المفاتيح التي مازلت أشد عليها بين أصابعي ، بحيث أنني وقبل أشهر عندما رأيته امامي فجأة ، في حفل شديد الازدحام ، لم احاول الاقتراب منه ، كانت مسافة

قصيرة تفصلنا وكل واحد منا مشغول بأصدقائه ، ولكنني عندما القيت نظرة عليه ، وجدته لم يزل كما عهدته ، القامة ، العينان ، الشعر .. لا ، هنا توقفت نظرتي اذ أن الشعرة البيضاء الوحيدة التي كنت أعرف موقعها جيدا في رأسه ، ضاعت بين عشرات من مثيلاتها ، وعندما أدار وجهه ناحيتي والتقت أعيننا ، انبثقت النظرة القديمة مثل نهر لا يعرف التوقف ..

دقائق معدودات جمعتنا ، حاول أن يقترب مني ، حاولت أن اقترب منه لكن الزحام لم يلبث أن فرقنا ، فسار كل واحد منا في طريقه ، دون أن يلتفت الى الخلف .

شددت أصابعي على سلسلة المفاتيح التي كادت حلقاتها ان تنفرط تلفت الى الخلف ، وجدت الحافلة رقم (٧) واقفة في مكانها المعهود ، قررت التوجه نحوها ، لكنها تحركت قبل وصولي اليها، وبقيت حائرة في موقف تنطلق منه حافلات كثيرة .

٢١/آذار/١٩٩٠

سحر النظرة الاولى

فى الامس فقط كانت مشاعره مختلفة تماما • وكانت صادقة مع نفسها عندما قالت له انها قادرة على الابتعاد عنه دون خسائر تذكر •

بامكاني ذلك ، وقد عانيت كثيرا حتى توصلت الى هذا القرار لنفترق اليوم ان كانت مشاعرك تجاهي غير واضحة ، متذبذبة بين المد والجزر ساراك غدا ، لكن الغد سيكون يوما حاسما : فكر فى الامر •

ومرة اخرى ، وكما فعل قبل ايام ، رفع كفها الى شفتيه وقبل اصابعها دون أن يقول كلمة واحدة ومثلما فعلت في المرة الاولى ، ادارت وجهها عنه كي لا يلحظ نظرتها المتوهجة بالحب وران عليها الصمت •

كان ذلك فى الامس ، وكم يبدو الامس بعيدا ، فقد اختلف الامر تماما اليوم ، اذ انها احست حالما التقت كفاهما وتشابكت اصابعهما برقة ثم بقوة وتسللت عبرها ، تلك الرعشة الساخنة ، مثل تيار كهربائي الى جسدها ، انها غير قادرة بالمرة على الابتعاد عنه : بقي صامتا فى الدقائق الاولى ولابد انه كان يستعيد كل

ما قالته يوم أمس ، مشاعرها وانفعالاتها المتباينة ، وعندما انكسر الصمت بدا حديثهما متقطعا ، لم يعلـق كثيرا على ماحدث يوم أمس ، بل ذكر باقتضاب ان الصدق فى مشاعرهما متوازن وانه ، على الرغم من كل تناقضات الحياة ، غير قادر على الابتعاد عنها ، لم تجبه ، تجاهلت رأيه متمسكة في قرارها السابق ، ولكنها مع انعطافة الشارع ، استدارت اليه والتقت عيناهما ، فى تلك اللحظة بالذات ، ادركت فجـأة انها تحبه بجنـــون وانها مثله غير قادرة على الابتعاد عنه ، لم تقل له ذلك في الحـــال ، لكنها بعد ساعات عندما اتصل بها ، كادت تتملق بصوته ، تريد احتواء تلك النبرات بكل درجاتها ، اما هو فقال لها مباشرة : انه لن يتمكن من رؤيتها على الغداء كما كان اتفاقهما ، وردت بانفعال •

ولكني افتقدك وفى حاجة الى الحديث معك

قال : وانا ايضا ، افتقدك بشدة ولكن •

ـ وماذا ستفعل مساء ؟

ـ سأغادر الشركة فى الخامسة ولن افكر بعد ذلك فى شيء آخر غير النوم فأنا أحس بالتعب •

بعد اغلاق الهاتف ، تبين لها انه غدا جزءا منها ، وفى داخلها يعقد خطان متوازيان عموديان ، خط يلح على البقاء معه وخط يصرخ مطالبا اياها بالتخلي عنه والفراق أمر محتمل في هذه المرحلة ولا يحتاج منها الا لشيء من القوة ، فلقاءاتهما قليلة ولا خـــط متواصل يجمع بينهما، وهو يبعدعنها باستمراروحبهما الذي بدا من

تلك النظـرة الاولى يقولون بأنها سحرية تخترق كل الحواجز وتربط بين غريبين بتأثير جاذبية عناصر كيمائية خاصة ، في أمس الحاجة إلى التواصل كي لا يتبدد ويذوب مع الايام ويبتلعه الزمن .

مشاعرها الحالية تتسم بالحياد . انها اشبه بشخص وقف في محطة للانتظار ، لا ، ليس ذلك ما تعنيه حقا ، ففي المحطـة يكون المرء متوثبا في انتظار شيء ما بعد ان يكون قد هيأ نفسه وحقيبته لحالة من التغيـير مقبلة بلا ريب ، امامي فساكنة تماما بعد ان هدأت تلك العواطف و الاحاسيس التي ظلت تجيش وتثور في داخلها بعد اللقاء الاول بينهما ، وجمودها الحالي يمنعها من التفكير المتواصل في امر محدد ، تتشتت افكارها حالما تبدأ بها ، تتسرب منها مثل خيوط الدخان ، تحاول الامساك بخيـط واه ولكنه سرعان ماينفلت منها ويتلاشى ، او انقطعت عن رؤيته اسبوعا لتتمكن من اختيار القرار النهائي بعيدا عن تأثيراتها .. مجرد نو . هكذا كانت تفكر في ساعات الصباح الاول ، ولهذا كان حديثها معه يتسم بالبرود عندما اتصل بها ظهرا ، على الرغم من شوقها اليه ، ذلك الشوق الذي سرعان ما خبا عندما أعلن لها عن أنشغاله

طوال ذلك النهار ، واستمر حديثهما باردا ، لا أثر للعاطفة فيه ، وخلاله كانت تفكر ، انه يبتعد عنها وعليها الانقطاع عن رؤيته ، بضعة أيام فقط وتتلاشى سورة الانبهار الاولى ، أم تراها الان قد تلاشت فعلا ! المهم ، انها اخذت تفكر في ذلك الاتجاه ، وتفكيرها بذلك الشكل ، خيانة له ، ولكنها مع ذلك لم تستطع التغلب على مسار خط تأملاتها ، فقد بـدا يضايقها فعلا في الآونة الاخـيرة

والاشياء الصغيرة ان تجمعت تحدث تغييرا ولا بد ان ضيقها قد بدأ، اصلا ، من نقطة صغيرة ثم اتسع ، كان بامكانهما أمتصاص خيوط السحر التي شدتهما بقوة الى بعضهما في اللقـاء الاول ومقاومة كل تأثيرات جاذبية عناصر الكيمياء التي يتحدثون عنها ، نعم كان بالامكان مقاومة ما سيحصل دون التعبير عنه بذلك الشكل العنيف ، فهاهما بالكاد يلتقيـان في الايام الاخيرة ، لقـاءات سريعة وخاطفة وكلمات مبتورة ، هي التي تجمع بينهما ، وهو قد أصبح في الايام الاخيرة ، انسـانا آخر له كيان منفصل عنها ، ولكن لماذ ا تتمادى في افكارها ؟ اليس من الافضل لها الانشغال بأي شيء آخر ، قبل ن تقودها تلك التأملات الى مواقف اخرى جديدة لا قبل لها بها ؟ لا ، ليس من السهل تجاهل ما يفعله فقبل يومين فقط لم يكن في مكانه المعهود ، في موقف الحافلة العمومية التي يستقلانها صباح بعض الايام والتي تنقله اولا الى الشـركة التي يعمل فيها وتنقلها بعد ربع ساعة الى دائرة البريد حيث تداوم يوميا وعندما جاءت الحافلة اخيرا لم تتوقف في انتظاره كعادتها ، بل صعدت اليها فى الحال .. كان قد قال لها يوم أمس « غـدا سنلتقي بالتأكيد فى موقفنا » وهاهو قد تخلف عن الحضور ، ذلك .فضل ، فما الذي يربطها به ، عليها الابتعاد عنه قبل أن يتحول حبه الى عادة مثل سائر العادات الاخرى ، وسحر النظرة الاولى يجب ن يتبدد وهو ليس بالامر المهم ، وهناك أمور اساسية اخرى منها الحالة النفسية والافكار المشتركة والمقدرة على اذابة الحواجز بين أثنين يشعران بحاجة ماسة ن يقول احدهما للاخر كل مايحس

به وما يحتمل في اعماقه من مشاعر لا يقدر على التحدث بها البساطة والسهولة نفسها مع أي انسان آخر ، ليس لكونها اسرارا خاصة ، بل لانها مجرد مسائل ذات طعم خاص تمنح العلاقة نكهة متميزة وعندما تستبد العادة بالفرد تتحول الى ادمان وعند ذلك فقط يصبح الفراق بين الاثنين امرا صعبا ، وسيجد كل واحد منهما ثغرة واسعة أمامه تكاد تلتهمه يوميا ومن حسن الحظ انهما لم يبلغا تلك المرحلة من علاقتهما بعد .

هكذا كانت افكارها تنمو وتتصاعد وهي تتساءل عن سبب تخلمه ، انها في بداية الامر لم تكترث كثيرا للمسألة ولكن الغضب سرعان ما أخذ يتجمع في صدرها ساعة اثر ساعة مثل غيوم كثيفة طبقة فوق طبقة ويتجمع معه الحزن والتوتر ، وفي تأملاتها كانت تحاول العودة الى النقطة الداكنة الاولى التي أثارت هواجسها ، وكانت غارقة في افكارها غير قادرة على الاشتراك في احاديث زميلاتها في العمل ، وخاصة تلك التي تمتلك صوتا رفيعا حادا ولا تنقطع عن الكلام حتى خلال قيامها برزم الرسائل بحسب البلدان المرسلة اليها ، وكانت تتحدث عن اسعار المواد الغذائية الاخذة في الارتفاع واختفائها أحيانا ، لقد أختفى من حياتها ، تقريبا في الايام الاخيرة بعد توحدهما في الايام الاولى ، ولابد أن تضع حدا فاصلا بينها وبينه له عادات مختلفة ، تكاد لا تعرفه .

وارتفع الصوت الرفيع الحاد .

تعودت على مشاهدة مسلسلات التلفزيون حد الادمان ، ماذا تفعل بدونها ياترى ؟

ولكنها لم تتعود عليه بعد عدد محدود من اللقاءات وكلام تعبير مبتور دائما ، تتشعب احاديثهما ثم تتوقف ، يقفـزان من موضوع الى آخـر ، والوقت الضيـق ، يخنقهما ويدفعهما الى قول اشياء كثيرة في سرعة قياسية ، انها مثل عناوين الصحف ، قصيرة جدا لا عمق فيها ولا سرد ، مجرد عناوين تقول ولا تقول •

وارتفع الصوت الرفيع مجددا :

منذ ثلاثة أسابيع بدأت بتطبيق اسلوب جديد مع الاولاد ، انهم في حاجة لي المزيد من الصراحة،ولا تفهم مغزى تلك الكلمات: ولكنها تعرف ان ثلاثة اسابيع قد مرت على علاقتها ، يالها من مدة قصيرة ، أمور كثيرة في حياتهما ولا يعرف واحد منهما عنها شيئا انها فعلا في حاجة الى المزيد من الصراحة مع نفسها •

ويصل اسماعها الصوت الاخر الرفيع •

هناك حاجيات كثيرة نشتريها بأستمرار بلا هدف ، تتكدس في الغرف مع الايام ، يجب الاستغناء عما لانحتاجه حتما •

وهي ايضا تستطيع الاستغناء عنه وهذا الشوق العارم اليه يمكن دفنه حتى يذبل ويموت والحب مثل زهرة نادرة في حاجة الى عناية مستمرة ، في تلك اللحظة رفعت وجهها نحو زميلتها وهي تقول بصوت حاولت ان يكون مرتفعا •

وأنا ايضا ، أقصد بأمكاني الاستغناء عما لا حاجة لي به •

وحتد الصوت الرفيع مستطردا في الحديث ، انه لا يعرف التوقف ، ولكنها ستتوقف عن حبه وستقول له ذلك مباشرة وهي

تتطلع في عينيه اللتين تحبهما (قالت له مرة ان الحب ينهمر منهما عليها كالمطر) وستقول له انه قد اصبح يغيب عنها ثلاثة ايام وقبله خمسة ، وغضبت وتوترت وانتظرت وقررت مقاطعته ، ولكنه ما آن اتصل بها وما ان تسلل صوته الى خلاياها الهامدة حتى بدأت بالتراجع السريع وهي تحاول اقناع نفسها بانها ستمنحه فرصة اخرى ، او بشكل آخر ، تمنح نفسها فرصة أخرى ، فالحب الحقيقي لا يأتي بسهولة ، وأمر غير اعتيادي أن تثار كل المشاعر الجميلة لدى انسان لمجرد التطلع فى عيني شخص آخر او لمجرد سماع كلمة منه ، بل ان عبارة بسيطة قد يقولها مثل (كيف حالك) تمنحها ، وفي لحظة واحدة سعادة غامرة ، تنبسط اساريرها لدى الاستماع اليها وراحة تامة تتسلل الى داخلها ، كم من واحد او واحدة تقول لها هذه العبارة يوميا ؟ العشرات بالتأكيد ولكن (كيف حالك) التي يقولها تحمل في أحرفها عطرا خاصا وشوقا مكثفا ، وهي عندما تسمعها منه ، فى كل مرة ، تصمت قليلا ، فلابد من بعض الوقت كي تمتص ، في خلالها ، ذلك الصوت الاثير، الحب الحقيقي لا يأتي بسهولة بهذه القوة وهو في حاجة الى الرعاية مثل زهرة نادرة ، ولكن اهتمامه بدا يتضاءل ، يغيب اياما ثم يعود ليقول انه كان متعبا و نه فى حاجة بأستمرار الى النوم ، لينم وليشبع نوما ، وعندما يسترد وعيه سيجدها قد ذهبت عنه الى غير رجعة، ولابد ان ذلك اليوم آت غدا أو بعد غد أو بعد شهر وعليها أن تعوّد نفسها على فراقه لا تهتم أن جاء او لم يجيء انتحدث أو لم يتحدث وتحوله الى ظل رفيع فى ذاكرتها .

ثلاثة اسابيع فقط هي حصيلتهما المشتركة من الحياة ، ثلاثة اسابيع استثنائية ، والمشكلة برمتهــا انهما بدءا الرحلة من تلك المرحلة التي تنتهي اليها علاقات الاخرين ، مرحلة التوحد التام ، ففي اللقاء الاول تعلقا ببعضهما بشكل خرافي ، وفي اليوم التالي تحدثا ببساطة اذهلتهما عن احاسيسهما المشتركة وحبهما (وبالتأكيد انه الى الابد) وفي اليــوم الثالث اتفقا على الزواج ، وهكــذا قفزا مرة واحدة الى قمة جبل شاهق دون أن يحاولا كشف الطرق المؤدية اليه ومعرفة ثغراتها ومدى وعورتها و لقفزة الواحدة قد تؤدي الى القمة أو الى الهاوية أو تدفعهما نحو الانحدار السريع ، انهما ينحدران الآن من تلك القمة العالية التي ارتفعا اليها في دقائق ، فشكل فعل رد فعل مساوٍ له ومعاكس له في الاتجاه هذا قانون ثابت في الطبيعة وهي بقرارها الاخير لا تحس انها تتمادى في اطلاق افكارها ضده كما خيل اليها في بادىء الامر ولابد ان هذه الافكار انطلقت من نقطة معينة ثم تضاعفت فكيف يمكنها اكتشاف تلك النقطة او العقدة وحلها ؟

قال لها قبل أيام عندما عبرت عن استيائها من تصرفاته الاخيرة ، ان مجرد التفكير ضده بذلك الشكل خيانة لحبهما ، اتراه يحاسب نفسه ايضا بمثل تلك الصرامة ؟ ولماذا تتجاهل هي تصرفاته واقواله التي تخدش مشاعرها مثل حــد السكين كما حدث قبل ايام ؟

قال لهــا :

سأسافر بعد اسبوعين الى البصرة في مهمة خاصة بالشركة .

ــ وكم ستبقى ؟

ـ يومان للعمل وأيام للراحة

ـ وستغيب كثيرا ؟

اياما لا أكثر و « الاهل » فى حاجـة اليّ ، وانا اكبرهم ، وجرحتها بشدة كلمة « الاهل » انها لا تعني بالنسبة اليه شيئا ، احتنفت بالكلمة وقذفتها الى اعماقها لتغـدو بعد ايام قليلة كرة صلبة تضايقها وخميرة تدمع عليها ملاحظاتها السلبية الاخـرى وتداعياتها .

لا بد ان ينتهي الامر معه ، ستقاطعه ، ذلك قـرار حاسم لن تتراجع عنه مهما حدث .

* * *

بعد يومين اتصل بها وبعد ان قال لها « كيف حالك » ذهبت الى لقائه وهي تردد من جديد مع نفسها سأمنحه فرصة اخـرى ، والحب الحقيقي لايأتي بسهولة وهو مثل زهرة .. الى آخر ذلك الكلام الذي يعرفه العشاق ويتبادلـونه فيما بينهم ، بين الحين والحين ، وخاصة اولئك الذين مازالوا يؤمنون بالخرافات والاساطير ولسحر والحب من النظرة الاولى .

بخــــور

● انها الرائحة نفسها ، زكية ومكثفة العطر وثقيلة الأثــر منتشرة في أرجاء الغرفة الموصدة النوافــذ والباب ، تتغلغل في أعماق الروح وتتشبع بهــا النفس وتدفعني فى كل مــرة الى الجلوس فى سكون مأخوذا بأجوائها وبالسحر الذي تحــدثه وتخلعه في المكان • رائحة شرقية حادة تنبعث من عيدان رفيعه ، قصيرة ، بنية غامقة أو مائلة الى السواد ، تسري وتشيع في المكان مع دخانهما المتماوج الرفيع ، جوا من الغموض ، فتختلط الاشياء في ذهني وتدفعني الى الصمت التام والتأمل •

هل قلت الصمت التــام ؟ لكنها ليست بالكلمة المناسبة ، فالصمت لغــة ايضا ، لغــة ساكنة ، تصطخب في ثنايا الانسان وتحمل في تدفقها قوة عاصفة لاتذر في هبوطها ولا تبقي •

فى داخلي تسري مثل هذه اللغة ، انها خافتة جدا وقوية جدا، لا يسمعها من يقف على مقربة مني ، ولكنها تضــج على الدوام وتتفاعل وتتصارع فيها الكلمات دون توقف • تدر صبحا ومساء وجزءا كبيرا من الليل مثل نهر عظيم وتشطرني الى مئات الافكار• وعندما تهجع الاشتات المتناثرة وتحاول ان تلتئم مع بعضها فى الهزيع الاخير من الليل أو بالاحرى عند ساعة الفجر ، يعاودني الحلم

الذي يتكرر في منامي ، عندما يبزغ امامي بغتة نور عظيم يقودني الى مكان مهجور وصوت عميق ينطلق من الفراغ الأبيض المضيء يهتف بي : « ابحث ايها الرجل عن روحك أينما كانت فأنت بدونها انسان خاو » • وفي تلك اللحظة التي يسكت فيها الصوت ويختفي صداه ، يتلاشى النور ويتوارى لأغرق فى عتمة صافية • هنيئة ويعود الي الوعي ، فأصحو من النوم وانا مبلل ، فى كل مرة ، بعرق غزير ، يهزني اضطراب عظيم وخوف مبهم يداخلني ويسورني ضمن مداه ، تكاد أطراف الحلم المتلاشي تمسك بي ، تدفعني الى حالة من التأرجح بين الوعي واللاوعي وبين النوم واليقظة وبين التبلد والصفاء حتى اتمالك نفسي بعد دقائق تبدو لي طويلة كالدهر ، فأرفع الغطاء عن جسدي المتعب واترك السرير لأقف أمام النافذة ارقب ساعة السحر وانفصال العتمة عن الضياء ، قبل طلوع النهار •

هاهي روحي قلقة ، متأرجحة ، منذ زمن بعيد ، بين العتمة والنور ، تسبح فى محيط من ضياء متوهج ، راضية وقانعة حينا ، قبل أن تتكور المياه أمامي فجأة وتتلون لتسحبني الى لجة سوداء ، أضيع بين أمواجها المتعالية ، الصاعدة النازلة ، دون ان يسمع صوتي أحد • وعندما أعود الى نفسي مستردا روعي ، أتأمل ، وأصولي تتغلغل في ثناياي تلك الرائحة الثقيلة ، العطرة النفاحة ، رائحة البخور ، رائحة تتسلل الي ومعها السكينة والرحة معها ايضا ملامح امرأة معينة ، امرأة أعرفها وأكاد أشك فى نفسي اني قد عرفتها او تحدثت معها او حتى اقتربت منها

اياما واحسست بالتوحد التام معها • معالم امرأة معينة ، شرقية السمات ، زكية الرائحة ، يفوح من بين ثنايا ثيابها وخصلات شعرها الاسود الطويل والمتهدل على الكتفين ، عطر ثقيل ، أشبه رائحة البخور المختلفة في مبنى قديم ظلت العيدان منه تشتعل واختفت وتركت لي منها أثرا لن يمحى ، ثقيلا لا تبدد ، مثل رائحة البخور المختلفة في مبنى قديم ظلت العيدان منه تشتعل تعبدا ، أعواما طويلة ، طوال الليل والنهار ، حتى تشبعت بها كل آجرة من جدرانها وكل ذرة من صوانها العطر وتحولت الى أثر متشبث بالزمن لا يبغي الفكاك منه •

الصوت العميق يتكرر ويهزني بقوة : ابحث ايها الرجل عن روحك فانت بدونها انسان خاو •

وأردد هذه العبارة مع نفسي ، في تأملاتي وفي غدوي ورواحي بين دوائر النور والعتمة ، وروحي في رحلتها قلقة ، فأين مستقرها وفي أي أي شيء كمالها !

واحمل عيدان البخور وأعدو صوب المقبرة الكبيرة ، بجوار النهر ، حيث رأيتها أول مرة وحيث كنا نلتقي • وما ان أبدأ في الحركة ، حتى تتوثب مشاعري كما في اليوم الاول ، ويزحف توتر مضاعف الى أعصابي المشدودة المتعبة ، يرافقه خوف وتوجس وحاجة ، شديدة الى تبادل حديث حميم مع أي انسان أجده قريبا مني لابدد معه لجة الحزن التي وجدت فيها نفسي بعد رحيل أخي الصغير •

ومع اقتراب خطواتي من الجامع الكبير ، أحاول في كل مرة ، تهدئة مشاعري ودفعها الى حافة السكون ، ولكنها تتصاعد باستقرار ، وعندما اعبر الشارع ، أتوقف دقائق أمام بوابة المقبرة الحديدية ، مترددا ، أنا أقول لنفسي ، ها قد عدت ثانية بعد طواف طويل في الشوارع البعيدة والقريبة وفي الكثير من الازقة الملتوية ، ها قد وصلت الى مبتغاك بعد مكابرة ، فما الذي تتوقعه يا رجل ! لقد رحلت واختفت تماما وانزلق بينكما حاجز كثيف غير مرئي ، موجود دائما ، يرتفع كلما اقتربت منه ويمنعك من اجتيازه، فما الذي تبغيه من بحثك المتواصل في عالم الوهم .

وعندما تنتهي تساؤلاتي بعد وصولها الى النقطة المسدودة، والتي اعرفها سلفا ، أستدير ، كما أفعل عادة ، متراجعا عن البوابة السوداء ، عائدا الى الشارع ، لأعبره من جديد وأدلف الى زقاق ضيق قصير ، مجاور للجامع الكبير ، يقودني الى زقاق أطول وأضيق ، تصطف البيوت على جانبيه ، اسير فيه دون أن أتطلع في وجوه الصبية المتجمعين في حلقة اللعب ولا في النسوة الجالسات أمام أبواب بيوتهن ، يمضين الوقت الطويل فى الثرثرة . فأنا أكاد أحفظ ملامحهم بل وأميز أصواتهم أيضا ، اسير باستقامة قامتي وعيناي مشدودتان الى لامام أنوء بحمل الافكار التي تنهشني كلما مضى بي الزقاق حتى أنتهي الى ضفة النهر . عند ذلك تتوقف خطواتي لأقف متأملا الحركة الابدية لجريان مياه دجلة الفضية ، المتعكرة ، وألمح الظلال القائمة للبيوت وأشجار النخيل المنعكسة عليها والمتأرجحة مع حركتها.وعندما تهدأ انفاسي

وننتظم ، اثبت عيدان البخور في مكان معين من الجرف وأشعل الجـذوة فيها . ومع تصاعد الرائحـة ، أتحامل على نفسي بعد هدوئها الموقت وأدفعها نحو طريق العودة الذي يقـودني من الزقاق الى الزقاق والى الجـامع والشارع والبوابة شبه المواربة في ساعة الاصيل التي أدفعها وأدلف الى الداخـل .

المقبرة كبيرة ، تمتد طولا وعرضا وهي تتوسع مع الايام ، تمتد البيوت ليها أو انها تمتد الى البيوت وتكاد تتشبث بجدرانها . والامر لا يشكل ، في بعض الاحيان ، فارقا كبيرا ، فهناك احيـاء اموات خارجها وأمـوات أحياء داخلها ، يطل كلا الطرفـين على الآخر ، يتبادلان الموقع والتحايا : طبتم صباحا وطبتم مساء ، وليلة سعيدة هانئة . فقد اصبحت المقبرة واقعا مألوفا في الحياة اليومية لسكان المدينة ، وهي توشك في طرفنا الجنوبي أن تتداخل مع بيوتنا العتيقة . وطقوس الدفن والنواح والعويل . قد غدت جزءا من الموسيقى المستديمة العزف وجزءا من المؤثرات الصوتية التي تفرزها حالات لحياة المتنافـرة . وتكرر النغمات المتعاقبة والمتشابهة فيها ، وهي طقوس تنفتح عليها مدارك الاطفال وتنمو معهم وتتصاعد مع امتداد خط العمر أيما كان طوله .

وفي السنوات الاخيرة ، احتضنت المقبـرة اعدادا متزايدة من البشر ، ازدحمت بهم فأصبحت القبور متجاورة ، تكاد أطراف الواحـد منها تتلاق اطراف الاخـرى ، وأمسى صعبا على من يزورها أن يجد طريقه فيهادون أن يطأها أو يقفز من فوقها وهو يلوم نفسه على تجاوز حرمتها . ولكنهم ماز لوا يأتون اليهـا ،

متدافعين من كل حدب وصوب ، دون أن يعبأوا بحقيقة تقول أنها اخذت كفايتها ولم تعد تتسع لمزيد منهم •

ولأنها باتت متجاورة ، اقتربت ذات يوم من تلك المرأة حتى لامستها • فزت من مكانها متراجعة الى الخلف ، تطلعت في وجهها ، منتبها ، في تلك اللحظة الى وجودها • ملامح شرقية ، عينان واسعتان وشعر أسود طويل وكثير من السحر والغموض والشفافية •

قلت لهـا في الحال :

ــ آسف ، فالمكان ، كما ترين ، ضيق جدا ،

لكنها لم تجبني • جلست على حافة القبر وهي تلملم أطراف ثوبها الاسود الطويل وأطرقت صامتة • وقفت بالقرب منها وحرج مبهم يسيطر علي ، حرج لابد انها تحسه وتجتازه أيضا ، فللأسى العميق طقوس متعلقة بالذات ، ليس من السهل البوح به أو التعبير عنه أمام الغرباء ، وكنا ، حتى ذلك الوقت ، غريبين عن بعضنا •

تسلل صمت ثقيل الينا ، على الرغم من رغبتي الشديدة ، آنذاك ، في التحدث مع اي شخص كان • فرائحة البخور القوية التي كانت تبعثها عيدان كثيرة ، متناثرة في المكان ، والتي لم أكن قد اعتدتها بعد ، دفعت حواسي الى التبلد والجحود حينا من الوقت • نظرت اليها وكانت هامدة في مكانها ، شفافة الحزن ، لا تبدر منها حركة ، ولولا رفة جفنيها ، لتصورتها تمثالا صب

في المكان من مرمر شفاف . ولما ازداد حرجي ، قررت الابتعاد عنها متجاهلا رغبة متصاعدة في أعماقي للبقاء والتحدث معها .
وعندما وصلت الى البوابة الكبيرة ، التفت اليها ، وجدتها واقفة في استقامة مثل ظل شاحب طويل ، يرتفع بين شواهد القبور ، ما بين القمة المتساقطة بكثافة والضياء القليل المنحسر عن المكان .

تعلقت تلك الصورة ببالي في اليومين التاليين ولم أستطع ، على الرغم من محاولاتي ، أبعادها . وفي اليوم الثالث ، وجدت نفسي ، وبعد طراف طويل ومكابرة وعناد ، أقف أمام البوابة الحديدية المواربة في ساعة الأصيل ، أدفعها بلطف وأسير ، يسبقني شوق مبهم ، أحاول تبريره لنفسي . بالفضول ، حتى وجدتها واقفة في المكان نفسه وكأنها لم تبرحه منذ أن فارقتها قبل يومين .

وتكرر الامر معي في الايام التالية حتى أصبحت المقبرة والمرأة والظل الشاحب الطويل الذي هو آخر ما أراه منها ، هاجسا يتعقب أيامي ويدفعني الى تتبعه بإصرار ، أريد أن أعرف سره ، ناشدا هدوء النفس والروح .

وذات أصيل ، لم تكن المقبرة ساكنة كعادتها ، في مثل تلك الساعة من النهار . فعلى مسافة غير بعيدة منا ، رأيت مجموعة من النسوة واقفات أو قاعدات ، تنوح كل واحدة منهن أو تصرخ وهن يضربن في الوقت نفسه بأكفهن على صدورهن المحمرة ـ المزرقة ، في مشهد يثير الألم . بقينا (أنا وهي) ، نرقبهن من مكاننا ، وعندما هدأت سورة الحزن والأسى العميق ، افترشن الارض ثم أشعلن الشموع حول أغصان الآس ، يرفرف عليهن

صمت تقطعه آهات نشيج مكتوم • وعندما قمن من مكانهن ، عدا واحدة منهن آثرت الجلوس ، تشكلت أمامي صورة فريدة : عباءات ترفرف بين شواهد القبور مثل الاشرعة وهي في اتساعها وطولها وتدرج الوانها بين الاسود القاتم والاسود الكالح وحركة الهواء بين طياتها ، ترسم لوحة لها ابعادها • عباءات عريضة ، منسدلة وقرص الشمس الداوي المائل الى الاحمرار وشواهد حجرية سود ، بيض وأعلام كالحة اللون ولافتات سود موشاة بالخطوط وأشجار متفرقة وذرات التراب المتطايرة في الهواء وفروع الآس الاخضر والق الشموع ، ممتزجا ذلك كله برائحة البخور القوية الزكية الحادة •

قلت وكأنني أحدث نفسي ، منبهرا بما رأيت :

ـ شروخ واهتزازات الروح من يعالجها ومن يداويها ؟

رفعت رأسها الي ، وللمرة الاولى ، أجابتني بصوت رقيق وكأنها لم تعد تغالب الصمت الطويل :

ـ بعض شروخ النفس وانشطاراتها أعمق من أن تداوى •

لم أجبها • اذ مجرد سماع صوتها بعد الصمت الطويل ، مفاجأة شلت لساني ، وسكوتي ، شجعها على مواصلة الكلام ، فأضافت بعد دقائق ، وكأنها تقرأ قصيدة أعتادت ترديد أبياتها •

ـ قنبلة أنفجرت بين يديه ، تناثر فى الهواء وذاب فى الحال كما تذوب قطعة السكر فى ماء مغلي ، •••

الصرخات الحادة التي أنبعثت من امرأة فى الجوار ،

تطعت حديثها . رنونا اليها . كانت المرأة واقفة ، ملتفة بعباءتها المتربة ، وقد حلت ضفيرتيها الرماديتين وشقت ياقة ثوبها الاسود وهي تولول وتصيح ، رحنا نرقبها وكلماتها تنحـدر الينا دون انتظام :

ـ رحل ولم ير شيئا . كان ولدي أصغر من أن يموت . في اليوم ، وقبل عودته الى الجبهة ، احتضنني وهو يقول : أنني خائف يا أمي وأخشى أن لا أعود اليكم . ثم ضحك وهو يضيف: اهتموا باللافتة السوداء ، علقوها في الشارع القريب من مدرسة البنات ، أهتموا بها ولا ترفعوها من مكانها ، وكلما مررتم بهـا قولوا ، كان يحب الوقوف في هذا الشارع ولكنه رحل وبقيت منه هذه اللافتة .

أغمضت عيني بقـوة ، فهدير الالم المنبثق من أعماق تلك المرأة ، أجج في النفس ذكريات اريد نسيانها عبثا . أخي بدوره لم ير شيئا ، كان لم يزل في طور الاندهاش مما يرى ويسمع وكان يحلم كثيرا بالعز والتجوال والحب .

ولدهشتي وجدت الكلام يتدفق مني بعد انحباس طويل ويختلط بصوت الالم المشروخ،اتحد صوتانا وتداخلا،وكأنأحدهما كان صدى للآخر ، ولم أعد أدري أو اميـز ، ايهما صوتي ، اذ انبثق من الصوتين صوت ثالث ، غريب الرنين ، يعلو وينخفض في انسجام تام .

ـ كانحتى اسابيع يلعب الكرة في الساحة القريبة من الدار

ويحلم بالتنزه مع فتاته . « كان عندما نشبت الحرب فى العاشرة من عمره ، صبيا مدور الوجه ، يلعب مع رفاقه في الدرب ، وعندما زارت الطائرات ذات ليلة » كان يخاف العتمة ، وعندما شاهد مرة فلما عن الاشباح ، ظل اياما يخشى السير بمفرده فى الزقاق « خفت وأختبأ تحت شجرة الرمان وأجهش بالبكاء وقلت له وانا أحتضنه ، ياصغيري » وأخي كان أصغر من الموت وهو لم يـر شيئا ، جسد وعلم ولافتة سوداء وخيمة ، وقرآن وشهيد ، ثم تبدأ الذكريات فى النزول الى القاع . فى متاهات النسيان الغامضة .

وارتفع صوت بحدة غير مألوفة ، كان صوتها الذي فصل بين صوتينا المتداخلين .

ـ لكنها لم تنزل الى القاع .

التفت اليها وأخذ صوتي يسترد نبراته الاعتيادية التي أعرفها ، منفصلا عن الصوت الآخر . وقلت لها :

ـ وماذا عن الزمن . انه ينحدر بنا الى الجديد .

ـ بمكاننا إيقافه .

ـ وكيف . انه نهر لا يعرف الوقوف . تجرف مياهه كل ما يعلق بها .

ـ وقالت بحدة :

ـ لكنه عاد اليكم وعرفتم مثواه الاخير ، ولم يذب مثل قطعة سكر . لقد توقف الزمن منذ ذلك الحين .

نظــرت اليها وكأنما ارادت أن تقول المزيد ، لكنها زمت شفتيها وادارت وجهها وهي تبتعد عني ، مثل ظل شاحب ، وفي اللحظة التي اختفت فيها عن عيني ، داهمتني فكرة اللحاق بها • سرت خلفها من زقاق الى زقاق وقبل أن تستدير مع انعطافــة النهر ، حانت منها التفاتة الى الخلف ، واجفلت لما رأتني خلفهــا وتوقفت عن الحركة • وفى تلك اللحظة ، شعرت بخجل شديد يغمرني ، وهي تحدجني بنظرة طويلة تحمل اللوم والعتاب ندمت على فعلتي ولم أجد ازاء تحديقها المتواصل غير العودة من حيث أتيــت •

وفي الايام التالية وبعد أن تكرر ذهابي الى المكان وجلوسي فى انتظارها عبثا ، بدأ النــدم يتحول فى داخلي الى أحساسي بالالام ، وكأنني أقترفت جريمة لا أعرف ابعادها وأنتهكت سرا ما كن ينبغي لي الاقتراب منه •

وفي أصيل اليــوم العاشــر لغيابها ، ذهبت الى المقبــرة وكانت هادئة لا يعكر سلوكها غير همهمات الام المذهولة عما حولها ، تمارس طقوسها التي باتت جزءا من المكان ، وتردد بين الشواهد المرتفعة لكلماتها : لم ير شيئا ••• » •أنتظرتها طويلا، ولما عيل صبري ، قررت السؤال عنها من حارس المقبرة الكهل والذي كان موجــود فى مكانه المعهود ، بالقرب من البوابة ، لا يبرحه قط •

كان شبه نائم ، يتثاءب بأستمرار وهو يلوك الكلمات بين شفتيه وينفي رؤيتــه لها ، لما وصفتها له • ولم أشعر الآن وأنا أهزه من كتفيه صارخا :

ـ ولكنها كانت هنا بأستمرار • كانت تقف عند ذلك القبر الملاصق لقبر اخي •

تطلع في عيني بفزع ، غير مصدق ما أقول ، ثم أجاب :

ـ هل أصابك مس من الجنون اذلك قبر فتاة أنتحرت قبل اربعين يوما ، نعم ، كانت تلك أوصافها ، وكنت أعرفها منذ الصغر ، اذ أن بيتها يقع في الزقاق القريب من ضفة النهر ، أم تراك تتحدث عن امرأة اخرى ، في الحقيقة ، لم أر من يزور قبرها منذ ان دفنت هناك •

ثم بدأ يتمتم مع نفسه وهو يغالب النعاس :

ـ هذه المقبرة الكبيرة تحولت الى مصدر للجنون • لقد فقدتم عقولكم ، أنت وتلك الأم والفتاة التي أغرقت نفسها في النهر ، فماذا سأرى بعد يا أهل المدينة •• ماذا ؟

ولم أرد سماع بقية كلامه ، انصرفت عنه والحيرة تعصف بي ورائحة البخور تتكثف كلما اقتربت من مكاننا ، وظل طيف شاحب يتشكل أمامي والمرأة الاخرى المذهولة عما حولها ، ماتزال في طوافها تردد نشيدها بصوت تسلل اليه الوهن : (لم ير شيئا، وكان أصغر من ان يموت وهو •••) • كنت أسمعها وانا أشك في حقيقة ما يحدث أمامي وفي حقيقة وجودي وفي كل ما مضى من الاحداث ، وأحس ان روحي لم تزل في طوافها خاوية ، غير مستقرة ، دون أن أدري اني ايضا ، سأغدو ، في الايام المقبلة ، جزءا من المقبرة الكبيرة ، أضيع في متاهاتها ، ذاهلا عن الحياة ، وسيكون لي نشيدي الخاص ، اردده دون انقطاع ، وانتظر بزوغ طيف من النور أصيل ونقي وأحرق عيدان البخور لمن مضى•

غـربـاء في الليـل

لم أكن في بداية الامر تواقا لمشاهدة ذلك المعرض على الرغم من صلته الوثيقة بعملي ، معرض المشاريع المعمارية لطلبة الجامعة ، ولكني تراجعت عن موقفي ، حالما علمت ، انه سيفتتح في قاعة الجمعية البغدادية في الوزيرية ، وقررت حضوره .
ذانا ، ومنذ ثلاثة أيام ، مسكون بشريط لا ينتهي من الصور التي التقطتها ذاكرتي عن تلك المنطقة التي عشت فيها عاما وبضعة أشهر ثم أنقطعت عنها ثلاثين سنة كملة ، ناسيا بل متعمدا عن كل ما يذكرني بها فالاعوام الطويلة التي مضت نعات الكثير وأسدلت الستائر الواحدة تلو الاخرى على الذكريات القديمة ، ستائر كانت ، في بادىء الامر ، رقيقة وشفافة وباهتة ، أكاد أرى من خلالها كل شيء ، ولكنها غدت ، مع مرور الزمن ، كثيفة وداكنة اللون بعد أن تجمع عليها الغبار ، ومنع تسرب نقاط الضوء الى ما حدث ، فانحشرت في قعر الذاكرة ، مهملة ، حتى مسّها لزلزال فاستيقظت ثانية لتنهمر عليّ في سيل لا ينقطع .

تداهمني الذكريات وأنا في طريقي الى تلك المنطقة التي كانت أثيرة ، اذ ان صوت قطرات المطر المتساقطة بانتظام ، قادر دائما ، على خلق حالة من التفكير والتأمل لديّ . أقود السيارة بسرعة غير أعتيادية ، كأنني أستعجل الوصول اليها ، متطلعا الى

الساعة بين الدقيقة والاخرى ، خشية أن اتأخر عن الموعد ، مع علمي بان بيني وبين افتتاح المعرض نصف ساعة كاملة . وفي (الوزيرية) أخذت أطوف في الشوارع التي كنت أعرفها واحبها واتأمل التغييرات التي حدثت فيها ، وبانفعال شديد ، أستعيد مرأى البيوت القديمة بأسوراها وحدائقها ، بل وحتى القطع المعدنية الصغيرة المثبتة على جدرانها الخارجية والتي تحمل اسماء اصحابها ، مستدلا منها على من بقي منهم ومن رحل . ومشاعري، التي كنت أحسبها هدأت بل وماتت ، انبعثت وكرة كبيرة ، تتقافز أمامي ، تسبقني وتحاول جري الى أقصى حدود السرعة ، فالحجر الذي القي في البركة أو ربما في البحيرة الكبيرة المتجمعة مياهها في أعماق اللاوعي ، منذ ثلاثين سنة ، هيج كل الصور التي كانت تلاشت وتشوهت بعد أن اختلطت الوانها وخطوطها ، فاندفعت فجأة الى مركز التفكير ودائرة الضوء .

أعرف ان عازف البيانو كان السبب في كل ما حدث ، ذلك العازف الطويل ، الذي رأيته في المطعم الصغير ، الانيق ، الذي تناولت فيه طعام العشاء مع مجموعة من الاصدقاء قبل أيام . وأنا في الحقيقة ، لم أنتبه ، في بداية السهرة الى البيانو الذي كان يحتل جزءا من المكان ، اذ أنني وجدت نفسي مشغولا بتأمل المطعم ، شبه المعتم ، والذي كان ، على صغر مساحته ، من أجمل الاماكن التي رأيتها في حياتي . لوحات كثيرة وتخطيطات بالاسود والابيض ، مختلفة الاحجام كانت تغطي الجدران في فوضى منظمة ، تغرق غالبيتها في العتمة ، تبدو منها غير خطوط باهتة ،

تبدو للعين في بعض الاحيـــان ، أكثر شحوبا ، وذلك عند تركيز النظر عليها من خلال أضواء الشموع الموزعة على الموائد القليلة المتقاربة . فالضياء الباهت ، كان يخفي بعض ملامح الوجوه ، لكنه كان أيضا ، يبرزها في زوايا اخـــرى ، ويضفي عليها حدة وعمقا أخاذا .

الاضواء والظلال والملابس الانيقة والهمسات والاصوات الخفيضة التي كانت تعلو أحيانا في ضحكة رقراقة ، والروائح العطرة وروائح الشواء المختلطة بالتوابل ، المنبثقة من المطبـــخ المفتوح الباب أو مجتمعة من اسياخ اللحم التي يفضل بعض الزبائن تشبيكها أمامهم ، على الموائد ، لمراقبة اللهب المتصاعد منها ، والتلذذ بشم الدخان الذي يرتفع في خيط رفيع ثم يختلط بأنواع أخرى تنفثها السكائر او السيجار . الكوبي زكي الرائحة .

كنت أشعر ، في تلك اللحظات براحة تامة ، انفث ، بدوري ، دخان سيكارتي بمتعة زائدة وأنا أتأمل اللوحات ، عندما سكتت الموسيقى فجأة ، وبحركة لا شعورية ، تطلعت الى الزاويـــة التي كانت تتسلل منها النغمات ، ورأيت ، في تلك اللحظة ، البيانو والعازف الشاب ، ورأيتها أيضا ، وأحســـت في الحال ، ان الدم قد ارتفع الى وجهي بغتة وان قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان ، عندئذ تساءلت مع نفسي : هل ما أراه حقيقة أم أنني أتخيـــل الصورة وان لتداخل الظلال والضياء ووجود البيانـــو الكبـــير تأثير في خلق تلك الهواجس التي انتابتني . ومرة اخرى ، تطلعت الى تلك الزاوية ووجدت المشهد ، كما كان ، لم يتغير منه شيء .

عازف، طويل القامة ، جالس امام البيانو ، ذو شعر اسود تتدلى خصلاته على ياقة بدلته البيضـــاء وهي الى جــواره ، وبصعوبة بدأت أتأملهـــا وهي تتحدث معه ، لا بل تهمس له ، وتكتب بعد ذلك شيئا ما فى ورقة صغيرة وتعطيها له ، راقبت المشهد ، الذي كان أمامي،وانا انمتم مع نفسي ، غير مصدق ما أرى : «مستحيل»

وكلمة « مستحيل » ، كررتها مرات • هل ان السحر الذي يغلب اجواء المكان واللوحات المندلية على الجدران بألوانهـا وشخوصها ، التي تبدو بعضها أسطورية ، وخطوطها البــارزة وروائح العطور والشواء والتوابل والدخان وطعم الشراب الجيد ، قد أثارت خيالي ودفعته كي يجنح فى عالم اللا معقول ، أم ان تلك العناصر مجتمعة هيجت ما في اللاوعي واعادتني الى الوراء وجسدت امامي مشهدا محفورا فى الذكرة ، كنت أعتقد انه أنطمـــر !

هل يعود الزمن الى الوراء ويسجل معه الرؤى ؟ •

المرأة التي امامي كانت لا تختلف عنها فى شيء ، قامة طويلة ، وجه مستدير ، شعر أسود طويل وعينان واسعتان داكنتان ، امرأة جميلة ترتدي الثوب نفسه ، أسود طويل وبلا اكمـــام ، تزيــن ياقته المفتوحة وردة بيضاء من الداتنيلا • راقبتها باهتمام وهي تعود الى مكانها وعيناها متسمرتان عليه • وتجمد ذلك المشهد امام عيني ، لا أكاد أرى غيره ، ونغمات أعرفها جيدا بدأت تعلو لتملأ المكان وتشكل لحن أغنية رقيقة كانت تحبها وترددها مع نفسها باستمرار • دقائق تمر وأتمالك نفسي ، ونظراتي تنتقــل

بينهما . هي وقطرة مثيرة في عينيها وهو يعزف باتقان ويعيد مقاطع من الاغنية ، وعندما يلتفت اليها وتومىء له برأسها ، يبدأ بغناء تلك الكلمات التي لم تمل يوما من تردادها : غريبان في الليل ، يتبادلان النظرات ، يتجولان في الليل باحثين عن الفرصة ، كيفما كانت » .

كنت معها في مثل هذا المكان الصغير عندما تشبثت عيناها بعازف البيانو ذي القامة الطويلة والشعر الاسود ، ولما توقف عن العزف برهة ، قامت من مكانها ، لتطلب منه أن يغني لها الاغنية التي تحبها . رأيتها تتحدث معه وتتناول منه ورقة صغيرة ، تكتب عليها شيئا وتسلمها له ، ثم تعود الى مكانها بالقرب مني ، لتجلس هادئة كما لم اعهدها من قبل ، وكأنها لا ترى غيره في المكان ، تبدو متوحدة معه تماما ، لا صلة لها بي أو بالآخرين ، ولم يعد يهمها ما أقول . لقد تغيرت في دقائق ، أدركت ذلك ، دون أن ادرك تماما ما الذي حدث بينهما ، أو ماذا قالت له فتلك أسئلة ظلت تتردد بيننا دون ان احصل منها على اجابة ما .

وفي الاسابيع التالية ، اكتشفت مدى التغير الكبير الذي طرأ عليها . كانت كثيرة الخروج وباعذار شتى ، كثيرة الشرود شديدة القلق والحزن . صامتة في أغلب الاوقات ، لا تتحدث الا لماما ، وعندما تحدثنا طويلا ، ذات ليلة ، ايقنت ان حياتنا معا قد توقفت . فغادرت الدار ، دون أن تبرر ما حدث وكأن خيوطا خفية كانت تشدها الى عالم آخر وعيناها الواسعتان الداكنتان تعبران عن تصميم أكيد .

ها انذا أطوف في الشوارع الفرعية المتتالية والمتشابهة • لم أكن أبغي مشاهدة المعرض ، لابـد لي أن اعترف بذلك ، ولكنني ، فى قرارة نفسي ، كنت مدفوعا لرؤية ذلك المنزل الذي جمعنا مدة من الزمن • قبل ثلاثين عاما أنا أعي ما أفعل ، ولم يعـد يهمني الوقت ، اترك الشوارع التي كنت اتجول فيها ، مقتربا من الشارع الذي اعرفه • ستة بيوت تنفصل عن الشارع الرئيس ، لم أنس ذلك ، وتدهشني قابليتي على التذكر • أقود السيارة متمهلا ، متطلعا الى البيوت ، انها لم تزل على عهدي بها ، لم يتغير فيهـا شيء الا الوانها التي بهتت وحدائقها التي ارتفعت فيها الاشجار • ها آنذا أنتهي من البيوت الستة ، واتوقف تماما أمام الدار • انها ايضا لم تتغير كثيرا ، فيما عدا الحديقة الامامية ، انها تبدو أشبه ببستان مهمل ، يبست اشجاره • أطيل النظر اليها واتنبه فجأة الى قطعة مثبتة بجوار الباب تقول ان الدار للايجار وان المراجعة مع الدكان المجاور ، واغادر السيارة متوجها نحو الدكان الصغير الذي يبدو انه اقتطع من حديقة جارنا القديم •

وافتح الباب الحديدي وإنفعال شديد يسيطر علي ، أتأمل شجرة التين القديمة ، كانت فى مكانها والى جوارها شجرة التوت، وصوت الرجل الذي يصحبني في جولتي يقول :

ـ لقد أهملت الحديقة فى الآونة الاخيرة • لا أحد يعتني بها • المرأة مريضة والبنت مشغولة بها • اعتقد انهما ستسافران الى لبنان فى الاسبوع القادم ، تقـول البنت انهما ستستقران هناك ، كما كانتا قبل مجيئهما الى بغداد منذ عام • بامكانك القاء

نظرة على الغرف ، فالمرأة وحدها وهي تقبع في غرفتها . هــذه غرفة الضيوف .. انها كبيرة وهي...

لا اسمع بقية كلامه ، الجدران القديمة بدأت تسحبني اليها وتشحنني بدفعة من الانفعالات هنا كنا نجلس ، والجدران هذه ، لم تكن في ايامنا الاولى ، قد اعتادت وجودنا ولم نكن الفناها بعد . وفيما بعد ، اختار كل واحــد منا مكانه المفضل . كانت تحب الجلوس عند النافذة ، حيث اقف الآن ، وهنا نشب الخلاف الاول بيننا ، عندما علقتُ على الجدار ملصقا باللونين الاحمر والبني ، اثار استياءها . كانت هي ايضا تميل الى رسومات ضياء العزاوي وتخطيطاته ولكن احتجاجها كان بسبب عدم انسجام الوان الملصق مع لون الستارة الازرق الداكن . ودار بيني وبينها نقاش طويل، انتهى بتنازلي امام اصرارها . كانت دائما عنيدة ، لا تتنــازل بسهولة عن مواقفها ، حتى وان كانت تلك المواقف تبدو مجرد نزوات طارئة . واتوقف عند النافذة طويلا ، متأملا شجرة التين الهرمة التي أمتدت بعض فروعها الى الارض ، محاولا قدر الامكان استعادة تفاصيل الغــرفة ، الستائر الزرق الداكنة ، الكراســي والمائدة المربعة الشكل البيضاء وفوقها زهرية كبيرة الحجــم ، مدورة الشكل من الخزف الابيض ، منقوش في وسطها بخطوط بنية دقيقة مجموعة من الغزلان تعدو راكضة في دائــرة مغلقة . كانت تحب تلك الزهرية وتحرص عليها لأنها تذكــرها بوالدتها المتوفاة ، وكانت تحكي لكل من يبدي اعجابه بها ، كيف أنها في

طفولتها ، ذهبت مرة الى السوق ووقفت مبهورة أمام منظر الغزلان الراكضة ودفعت والدتها لشرائها •

واتبه الى صوت الرجل يقول :

ـ وهذه هي الغرفة الثانية ، انها الصالة ••• وتتحرك قدماي، واتبعه ببطء الى الغرفة الاخرى التي كانت المكتبة • وما ان اجتاز بابها حتى تصطدم عيناي ببيانو كبير يحتل الطرف الايمن من الغرفة ، وعلى الجدار المقابل ، أجد لوحة أعرفها •

كنا في بيروت ، وفي أحدى مكتباتها وقفت مبهورة أمام مثل هذه اللوحة ، وما أن دفعت حساب الكتب التي اشتريتها حتى صاحت :

ـ لابد من شراء هذه اللوحة •

ونظرت الى اللوحة التي كانت تمثل رسما لغابة تساقطت اوراق أشجارها البنية الصفراء وغطت الارض وشبح امرأة يبدو من بعيد، تكاد الاشجار الرفيعة العالية تخفيها عن الانظار •

وقالت لها

ـ ولكن من الصعب نقلها ، انها كبيرة الحجم •
ـ ولو ، سأحملها بيدي • لقد أحببتها •• انني اجد نفسي فيها •• لابد ان احتفظ بها •

وضحكت لعبارتها الاخيرة والتي قالتها بأحساس صادق، وكأن اللوحة تلك قد غدت في دقائق شيئا مهما بالنسبة لها •

ـ كما تشائين ، ولكنني اعرف انها مجرد نزوة •

ـ سترى ، وعليك ان تعرف أن بعض النزوات التي تبدو طارئة تتحول أحيانا الى حالات ثابتة •

وبعد عودتنا الى بغداد ، علقت اللوحة على الجدار المواجه للمكتبة وهي تقول : كي يكون لي في هذه الغرفة شيء يعود لي•

كنت ، آنذاك ، اعد المحاضرات التي القيها على الطلبة في الجامعة ، وكانت هي تجلس الى جوار المكتبه ، تحاول أن تسحبني الى الكلام مبدية ضجرها من صمتي وانشغالي الدائم بالقراءة والكتابة • كنت أرفع رأسي اليها بين الحين والآخر ، واجدها تقرأ في كتاب ما برهة ، ثم تعيده الى مكانه ، لتنصرف لمشاهدة التلفزيون •

أقترب من اللوحة ، الاشجار الجرداء والارض مغطاة تماما بأكداس من الاوراق الميتة وشبح • امرأة يبدو من بعيد • التفت الى البيانو • ما الذي جمع بينهما ؟ وسورات من الحزن تجتاحني وتستولي علي ، واتذكر الرجل الواقف الى جواري وأسأله :

ـ من هي صاحبة المنزل ؟

ـ أرملة عجوز ، تقيم فيه مع أبنتها • كانت مثلك تمر من هذا الشارع ، واستوقفتها كما قالت ، لافتة « للايجار » ، لقد سكنت الدار ، منذ عام تقريبا ، مع أبنتها • كانت مريضة وحزينة ولكن صحتها تدهورت تماما في الاشهر الاخيرة •• وهي عاجزة ولا ••• »

ومثل شخص واقع تحت تأثير تنويم مغناطيسي اتحرك ، أخرج الى الممر الطويل الرفيع ، وأقف أمام باب الغرفة الثالثة ، غرفة مومنا ، مترددا في فتح بابها . لماذا التـــردد ، ؟ هل أخشى حدوث امر أعرف أنه المستحيل ! أم ياترى كنت لا أستعجل قطع الشك باليقين وتبعني الرجل في هذه المرة ، ليتوقف خلفي ، ثم يقول :

ـ انها عزفتها ، وقد تكون ...

ولكنني أفتح الباب وأرى الى جوار النافذة كرسيا معدنيا متحركا ، وامرأة ذات شعر رمـــادي قصير ، رأسها الى الامام ، وكفاها تتدليان من فوق مسندي الكرسي باستسلام تام . واقترب منها وخوف مبهم يسوّرني ، تأمل البشرة الشاحبة ، الجلد ملتصق تماما بعظام نائئة وعروق بارزة . واقترب أكثر ، عينان واسعتان داكنتان مفتوحتان ، خاليتان من الحياة ، قد تجمدت فيهما نظرة فارغة لكنها بدت لي شديدة الحزن ، مصوبة نحو النافذة ، حيث خيوط المطر النازلة ، تمسح زجاجها . أمد يدي الى الامـــام .. أحرك أصابعي أمام عينيها ، والظنون تتجاذبني ، وصوت الرجل يرتفع في حدة ويقول :

ـ ماذا تفعل انها ...

ويرتفع صوتي بعد أن فقدت السيطرة على نبراته ،

ـ باهرة .. هل أنت باهرة ؟

ويرد على الرجل :

ـ ماذا تقول .. هل تعرفها .. أنها مشاولة ، لا تقدر على الحركة ، لا فائدة من الكلام معها .

التفت اليه ، مستنجدا :

ـ هل هي باهرة ؟

ويقول وعلامات الدهشة تعلو وجهه ،

ـ لا أعرف أسمها •

وقف مبهورا امامها دقائق طويلة ، تتنازعني الافكار ، وانا في حيرة من امرها • وأدير عنها وجهي ، لأرى مائدة صغيرة بيضاء في الزاوية ، وعليها ، وكما توقعت ، زهرية بيضاء في وسطها نقوش بنية دقيقة تمثل مجموعة من الغزلان تعدو راكضة في دائرة مغلقة ! تعود نظراتي اليها ، وهي متجمدة في مكانها ، لا تتحرك فيها عضلة واحدة ، والعينان الواسعتان فارغتان من الحياة ، تتطلعان الى الامام وكأنهما عينا دمية من حجر •

أبتعد عنها والاسئلة تحاصرني : هل ان مرأى الدار وزخم الذكريات التي انهمرت في سيل عارم شقت لنفسها تعاريج لم تكن فأختلطت في ذهني أكوام الصور ؟ وأبتعد أكثر ، ووقع قطرات المطر على الارض يشكل في أعماقي نغمات اغنية تطاردني منذ ثلاثين سنة ، بدأ ايقاعها بالتداعي ••

لعبة الصمت

ـ لم يكن الامر قد خطر على بالي ولكنه بالتأكيد كان قد مر ببالها ، ففي الحقيقة ، لم تشعرني من قبل بأي اهتمام غير عادي . بل ان الامر قد حدث مصادفة ، دون ترتيب مسبق ، عندما التقينا في ذلك اليوم في منزل أحد الاصدقاء وكان مجلسي الى جانبها فأخذت تصغي الى حديثي عن مشروعي الذي تأجل مرات عديدة ، وهو تأليف كتاب عن التسلل الاجنبي الى الخليج ، بسبب افتقاد حياتي الى الهدوء ، فالبيت ضيق ولا مكان خاص لي فيه ، والغرف الثلاث فيه موزعة على عائلة كثيرة الافراد تكاد تضيق بهم وتقذفهم الى خارجها .

عندما انتهيت من كلامي ، التفتت رانيا الي لتقول انها قد حسمت مشكلة المكان ، وسألتها :

ـ وكيف ؟

ـ أجابت :

ـ أصبحت لي غرفة خاصة بعملي ، بيتنا ضيق أيضا ، ولكن كانت لدينا شرفة عريضة تطل على الحديقة ، أحطتها بثلاثة جدران خشبية ـ زجاجية فتحولت الى مرسم أنيق ، واصبح لي المكان الخاص والاثير ، وضعت فيه كل ما أحتاجه : أدوات

الرسم ، الكتب وأشرطة الفيديو والموسيقى ، وبت لا أحس بوجودي الا وأنا بين جدرانها •

وقلت لهـا :

ـ احسدك فعلا على تلك الغرفة ، مشكلتي ، كما سمعت قبل قليل ، اني افتقد المكان ، ولو توفر لي ذلك لأنجزت كتابى فى غضون اسبوعين تقريبا ، لاسيما و ن البحث قد تكامل وانجزت المسودات الخاصة به •

عند ذلك وجدتها تتأملني لحظات ثم تقول :

ـ وماذا لو منحتك بضعة أمتار من مكاني الخاص ؟

ـ لا افهم ماتقولين •

ـ اعني ان تشاركني غرفتي اياما ، لنقل أسبوعين ، تنجز في خلالها دراستك ، ألم تقل انك تشكو من عدم توفر المكان :

تطلعت فى عينيها غير مصدق ، لأرى مدى جدية عرضها • عينان واسعتان جميلتان هما أجمل ما فى وجهها ، ووجدت فيهما ، في تلك اللحظة ، نظرة حيادية لا تقول شيئا ، كانتا ، على اتساعهما وعمقهما ، فارغتين من أي معنى •

كنت أعرف رانيا منذ اعوام ، امرأة قد تجاوزت الثلاثين من عمرها ، عاشت أعوام دراستها في لندن ، تزوجت وطلقت ثم عادت الى الوطن مع طفليها وانصرفت الى الرسم • كنا نلتقي في أوقات متباعدة في بيوت الاصدقاء أو في معارض الرسم • كنت أعرفها

معرفة سطحية اذ لم أقترب يوما من روحها ، من أحساسي ، في بعض الاحيان ، بمحاولتها الاقتراب مني . ولهذا السبب، ولاسباب عامة اخرى معروفة لديكم ، وجدت عرضها غريبا ، وان كانت قد طرحته ببساطة شديدة وكأنها تقترح عليّ مشاطرتها تناول تفاحة مثلا .

ولهذا سألتها مرة اخرى وانا عني ما أقول :

ــ لم أفهم تماما .

ضحكت بصوت صاف قبل ان تقول :

ــ لا افهم ، لم افهم ، وهل انها معادلة رياضية صعبة الى هذا الحد . الامر بسيط جدا ، لدي غرفة للعمل وانت تشكو المكان لنتقاسم المكان أياما ، وكأننا نعمل معا ، الا ترى أنني أمنحك فرصة نادرة على طبق من ذهب .

وتساءلت :

ــ وانت ؟

ــ وماذا عني ؟

ــ اين ستذهبين ؟

ــ الغرفة تتسع لكلينا وفيها مكتب بامكانك استعماله ، ما عليك مني ، سامارس الرسم في زاوية دون ان اعكر صفو افكارك .

ــ ولكن وجودنا معا ، ساعات عدة ، قد ، لا بل بالتأكيد سيدفعنا الى الكلام وتكون النتيجة لاشيء تقريبا .

اثارتها عبارتي الاخيرة ، مال رأسها الى الخلف ، ولكنها استجمعت نفسها وهي تقول بصوت مرتفع بعض الشيء فيه بعض التوتر •

ــ ماذا تقول ! الكلام بيننا يؤدي الى لاشيء !

توقفت برهة عن الحديث ، وعادت اليه بعد لحظات :

ــ لكننا نستطيع ان نتجاهل بعضنا ، وهل تعتقد انني سأتوقف ، عن عملي مثلا ، من اجل تبادل الكلام معك ؟ معرضي القادم قد تحدد موعده ، وعلي اتمام كافة اللوحات له في خلال اسابيع • بالنسبة لي ، استطيع أن اتعهد لك بالصمت التام ، بامكاننا معا التعهد بذلك • ان لا نتحدث في شيء ، أي شيء • ان نعد نفسك في مكتبة عامة ، تأتي اليها صباحا ، تكتب وتنصرف دون أن تتبادل معي كلمة واحدة • لنجرب ممارسة لعبة الصمت ولنر من يتفوق فيها ومن يحترم اصولها ومن يكسر او يتجاوز حدودها • انها تجربة جديدة ، بلا شك •

تطلعت في عينيها ثانية بعد أن راقت لي الفكرة وبدت لي مغامرة فريدة ، لم تخطر على بالي يوما • رانيا ، لم افكر فيها يوما ، وكانت حتى ذلك الوقت مجرد وجه اراه في بعض الاحيان وأنساه في ما بعد • وتساءلت مع نفسي ، هل الامر بهذه البساطة التي تطرحها ، أم ان هناك شيئا آخر ، اجهله وترمي اليه •

ــ حسنا ، سأفكر في الامر واتصل بك بعدها •

ـ وقد تحتاج الى اسابيع حتى تستقر على رأي ما قبل ان تسبغ علي نعمتك •

وضحكت بشكل مفتعل ، كي أخفي ارتباكي وانا أقول :
ـ ربما ، والتقت أعيننا برهة ووجدت في عينيها نظرة فيها التحدي ، ولكنها لم تدعني أكمل عبارتي ، اذ قامت من مكانها فجأة ، مبتعدة عني ، لتنظم الى حلقة من الاصدقاء ، متجمعة فى زاوية اخرى من الغرفة ، كانت اصواتهم قد اخذت تعلو تدريجيا وهم يناقشون احتمالات الحرب •

وفي الأيام التي تلت ذلك اللقاء ، خطر على بالي اقتراح رانيا مرارا • كنت اتذكرها كلما جمعت أوراق المسودات والكتب والمصادر وهي كثيرة جدا ، وكلما هممت بالكتابة وفشلت بسبب ضجيج بيتنا الصغير •
(رانيا ، عرضك مغر والايام التي بقيت أمامي قليلة جدا ، والجهة التي كلفتني بالبحث ، تريده في الوقت المحدد ، فماذا أفعل ؟ اريد أن اقاسمك غرفتك ولعبة الصمت المثيرة التي تحدثت عنها ، أريد ولكن ••)
(ولكن) تلك الكلمة التي تتضمن أمورا كثيرة ، كانت تبرز أمامي باستمرار ، متشحة بأعذار مختلفة ، منها كيف ستكون العلاقة بيننا ؟ ماذا سأقول للاخرين ؟ هل ستتطور الامور بيننا وكيف ؟
وكيف ولكن ،ظلتا على بالي، تمنعاني من اتخاذ القرار الاخير •
وفي الاسبوع التالي ، لمحتها في حفل افتتاح احدى المسرحيات

فى قاعة الرشيد، بدأت أشق الصفوف نحوها ، تجاهلتني مبتعدة، فلحقت بها وأنا أقول بصوت عال •

ـ رانيا •• لحظة ••

استدارت لي وبدأت تستمع الى كلامي وانا أقول :

ـ وكأنك نسيت اقتراحك !

تساءلت :

لا أفهم ••

قلت فى الحال :

ـ مشروعنا ، بضعة أمتار من غرفتك ••

قالت :

ـ آه ، اما زلت تذكر وهل توصلت اخيرا الى قرار ! يبدو ان الامر أستغرق منك وقتا طويلا ، لننس الموضوع ••

ـ ابدا •• يام الاجازة تذهب سدى ولم أفعل شيئا يذكر • ورأيت النظرة اياها فى عينيها ، التحدي ، وهي تقول وكأنما الامر لم يعد يهمها •

ـ حسنا ، غدا ساكون في انتظارك • وكنت حتى تلك اللحظة مترددا فى اعماقي ، ولكن عبارتنا الاخيرة لم تدع لي مجالا للاخذ والرد ، اذ كانت لهجتها جادة وحاسمة ، فاتفقنا في الدقائق التالية على موعدنا فى اليوم التالي ، أعطتني عنوانها ورقم تلفونهاللإتصال بها ان خطر لي الاعتذار • وفي الحقيقة لم يكن في نيتي الاعتذار بعد ان رأيت نظرة التحدي تلك للمرة الثانية ، كما أن عرضها كان

يتسم بجرأة لم أعهدها من قبل ولقد أعجبتني بساطتها ووجدت في الامر كله فرصة للتغيير وبابا موشحا بالغموض قررت طرقه وسبر دواخله .

وهكذا وجدت نفسي اذهب اليها يوميا ، يجمعنا الصمت والعمل في غرفة زجاجية ـ خشبية ، أنيقة تطل على حديقة صغيرة . وكانت رانيا قد بذلت جهدا ملحوظا في ترتيب الغرفة وفي اختيار اثاثها والوانها ذات اللمسات الشرقية : الخشب الداكن والبسط المزخرفة ومجموعة القناديل الصغيرة المتدلية من زاويتين فيهما تفصلهما مرآة عريضة . وكان للون الشذري الطابع الغالب في الغرفة الستائر والوسائد الصغيرة المتناثرة على الارائك ، وهو لون كنت أميل اليه منذ صغري واتأمله باعجاب في قباب الجوامع الكثيرة في حينا .. ولذلك شعرت براحة تتسلل الى نفسي . في الدقائق الاولى التي ضمتني جدران الغرفة اليها . وعلى الرغم من تلك الراحة النفسية التي غمرتني في البداية ، وجدت صعوبة كبيرة، في اليومين الاوليين ، في التركيز على القراءة أو الكتابة بسبب الصمت المكثف الذي كان يلف المكان ، صمت لم اعرفه من قبل ولم آلفه . فضلا على أسئلة كثيرة كانت تثير فضولي وتحتل تفكيري منها السبب الحقيقي الذي دفعها الى تقديم مثل تلك الدعوة لي ، أسئلة دفعتني الى مراقبتها في بادىء الأمر علني أعثر على الجواب . وهكذا تحول الصمت الذي كنا اتفقنا عليه والذي كان يجمعنا يوميا الى لعبة بدت لي مثيرة ومشوقة .

كنت أصل الى دارها في التاسعة صباحا ، أجد الباب مفتوحا ، وأجدها بسيطة الهندام في سروال عتيق من الجينز مع بلوزة طويلة بهت لونها الوردي من كثرة الاستعمال .

ــ « صباح الخير »

ــ « صباح الخير »

وأجلس خلف المكتب الخشبي الاسود ، أنثر اوراق المسودات عليه وأبدأ في الكتابة وعندما تحين الساعة الواحدة بعد الظهر ، أجمع الاوراق التي نثرتها في الصباح ثم أنهض من مكاني متوجها نحو الباب و..

« مع السلامة »

« مع السلامة »

وفي خلال تلك الساعات الاربع ، كانت نظراتنا قد تلتقي احيانا ثم تفترق دون أن تقول شيئا . وكانت رانيا ، في بعض الاحيان ، تقوم من مكانها ، تقف أمام النافذة ، تتأمل أشجار الحديقة ، أو تغادر الغرفة بهدوء ثم تعود اليها لتقف من جديد أمام لوحتها وتنصرف الى الوانها .

كنا آنذاك في منتصف شهر كانون الأول ، وكان الطقس قد بدأ يميل الى البرودة ، على الرغم من وجود مدفأة غازية كبيرة ، ومع ذلك كنت اجدها ترسم بحيوية ونشاط على اللوحة المعلقة أمامها . غابة خضراء تبدو من خلال اشجارها عينان عسليتان واسعتان ، يكاد البريق المنبعث منهما يلامس قوائم حصان أسود

جامح يعدو في درب ملتو مغطى بطبقة بنية ــ صفراء من أوراق الشجر ، بينما تجلس قطة سوداء في الزاوية اليمنى من أسفل اللوحة ، مؤثرة الابتعاد عن الغابة ، لايبدو منها لشدة سوادها غير عينين عسليتين ، يقطعهما بؤبؤان أسودان تتطلعان الى الامام وكأنهما نذيرا شؤم أو انهما ترقبان بخوف مبهم ما يدور حولهما .

كانت رانيا قد خططت ، من قبل بقلم باهت شخوص عملها وبدأت تضيف اليه الالوان تدريجيا لتمنحه الحياة والدفء .

البرد كان يتسلل اليّ وبين مراجعتي لاوراقي ، كنت أرقب بطرف خفي تطور عملها وأتساءل مع نفسي عن الفكرة التي ترمي اليها . ماذا تريد أن تقول رانيا من خلال لوحتها ، وهل ان ما كانت ترسمه يعكس مشاعر يجيش في داخلها ! هل كانت خائفة من أمر ما تتوقع حدوثه ، هل انها قلقة أو متوترة الاعصاب ، واتطلع اليها فاجدها هادئة تماما وهي تمزج الوانها بصبر وهي تختار اللون المناسب وهي تحرك ريشتها بأناة ، ترسم وتمسح أحيانا وحولها مجموعة من علب الالوان والزيت موضوعة على قطعة من الشمع مفروشة على مائدة بجوارها . كانت الاسئلة ، كما ذكرت تتجمع فى ذهني وتنتابني رغبة شديدة فى توجيهها اليها ولكنني كنت اتراجع عن الكلام . فقد اتفقنا على الصمت ، ولغة الصمت كانت الاقوى تأثيرا ، وكان يخيل لي ان رانيا أيضا كانت تقاوم اغراء الكلام ، وتتراجع عنه كلما طرأت التساؤلات على بالها .

كنت انكب على الكتابة ساعة و ساعتين دون انقطاع أحيانا، ولكن ذلك الاحساس الخفي الذي كان ينبعث من داخلي ويقول

بأنني كنت مراقبا من قبلها ، لم يزايلني قط وكنت أكاد أرى شفتيها تنفرجان عن سؤال أو عبارة ما ثم تطبقان في اللحظة الاخيرة قبل أن تتحول الكلمات التي تتردد بينهما الى ذبذبات معينة لتشكل صوتا ينتقل الى الاسماع •

وهكذا مضى الحال في الايام التي تلت متسارعة • هي منكبة على لوحتها والوانها وأنا منصرف الى الكتابة والاوراق وحبل غير مرئي من لغة سرية يسري بيننا ، حبل يشتد يوما بعد يوم وتتكشف من حوله اصوات بيضاء وهمهمات تجيش في الصدرين تريد أن تعلن عن نفسها ولكنها تريد دون أن تنفجر •

كان الامر كذلك ، بيد أني لم اشعر بالضجر ، بل على العكس تماما ، فقد سرتني اللعبة وشدني العمل واصبحت اترقب موعدها بشغف ، بل ان يومي بأكمله غدا مرتبطا بها ، اترقب الصبح بفارغ الصبر وكأن حياتي قد تركزت في تلك الساعات الاربع من العمل والتأمل والصمت ، ومع توالي الايام ، ابتلعت تلك الساعات يومي واصبحت اللعبة هي الغاية الاولى لي،لا سيما بعد أن انجزت العجزء الاساسي من الكتاب بل كنت قد اوشكت الوصول الى نهايته ، على الرغم من التوتر الذي كان ينتابني أحيانا ويدفعني الى التفكير في وجودها الى جانبي ، بدأ ذلك الاحساس نقطة اخذت بالاتساع تماما مثل نقطة الماء التي تصبح تدريجيا بركة فساقية فجدولا ثم نهرا وبحرا يصب في محيط عظيم ، نقطة بدأت بالنمو لتغدو بركة تموج فيها هواجسي بعد ن اوشك الكتاب على التكامل وبعد أن اصبحت معتادا على وجودها الى جانبي هواجس كانت تدور

حولها ، اتراني أحتل مساحة من تفكيرها ام ان جل اهتمامها كان يتركز على اللوحة المعلقة أمامها ؟

كانت رانيا تتجاهل وجودي ، أو هكذا كان يبدو لي الامر ، تكاد توليني ظهرها في معظم الاحيان ، يبدو على ملامح وجهها هدوء مفعم بالحيوية ، تتألق عيناها كما اتضحت خطوطها وتعمقت الوانها المتداخلة . والغابة الخضراء أخذت توحي بالحياة وانقطة تستفز بنظراتها القوية كل من سيقف يوما أمامها لتنذره من شر مقبل والحصان الاسود غدا جامحا يكاد يقتلع ماتحته ، والصمت بيننا أزداد كثافة وعمقا وايحاء .

ولم تكن رانيا في الايام الاخيرة تمضي جل ساعات الصباح في الرسم ، اذ كانت بدورها قد اوشكت على الانتهاء من لوحتها وأخذت تغادر الغرفة الى الحديقة ، باحثة عن دفء الشمس وكان بامكاني رؤيتها من خلال زجاج النافذة العريضة ، تسقي الاشجار حينا أو مفضلة الجلوس على مقعد من الخيزران فقد لونه الاصلي ، تستمع الى شريط من الاغنيات وفي تلك الاوقات كانت نظراتنا تتلاقى ، تتوقف عند بعضها ثوان ، أو تتبادل ابتسامات خفيفة . كنت اتأملها بأعجاب واقاوم رغبة عنيفة في الانضمام اليها وتبادل الحديث ، أي حديث معها . فلغة الصمت غدت امرا لا يطاق ، كسرت حدته هي بالابتعاد جزئيا عن المكان ، وتركتني أرقبها ، عبر الزجاج ، منتبها الى الزمن الذي يمضي ويتسرب دون أن نخط عليه كلمة أو حرفا،متسائلا مع نفسي،عن مدى حاجتها الى احاديثي وعن كنه مشاعرها،موزعا بين التردد والصلابة وبين الضعف والقوة

وجاء اليوم الاخير ووجدته مختلفا منذ بدايته غبار كثيف كان منتشرا في الجو وطبقات منه قد غطت كل شبر وكأن يدا سحرية ظلت ساهرة طوال الليل التي فاتت ترش ذرات من غبار أصفر ناعم فوق كل مكان من المدينة •

قلت ذلك لنفسي وأنا أتأمل الحديقـة بأشجارها المغبـرة قبل أن ادفع الباب الخشبي المقوس كالهلال الى غرفـة المرسـم واجدها في انتظاري في صورة مغايرة لما اعتدت،ترتدي جلابيةواسعة مخططة باللونين الوردي والبنفسجي ، صورة دفعتني الى تأملها باعجاب لم أحاول اخفاءه •

جلست رانيا أمام لوحتها وجلست كالعادة خلف مكتبها الذي كان قد غدا مكتبي ، وبدا كل واحد منا يشاغل نفسه بوضع النقاط الاخيرة في عمل كان قد أنتهى منه ، بدأت اجمع أوراقي في تسلسلها، بينما اخذت رانيا تجمع الوانها وتعيد ترتيبها في دولاب صغير •

وفجأة علا صوت رعد تطلعت ، عبر النافذة الى الخارج فخيل لي أن الضياء قد أختفى تماما وصفحة السماء قد اكفهرت بطبقات من غيوم سود ، وفي خلال دقائق قليلة اشتد قصف الرعد وجمحت الرياح ودفعت زجاج النافذة الى الخلف لتغزو الغرفـة الساكنة وتغير في لحظات معالمها ، فتناثرت الاوراق متطايرة في كل مكان وانقلبت اللوحة عن حاملها الخشبي •

فزت رانيا ، توجهت نحو النافذة ونظرة فزع في عينيها ،

نحاول اغلاقها قمت من مكاني أبغي مساعدتها ، أريد اعادة الامور الى حالها ، ولكن الريح الشديدة كانت في حاجة الى قوة اضافية لم نكن نملكها ، احاطت بنا بعد أن غزت الغرفة وعبثت بمحتوياتها فتحول هواؤها الى غبار أصفر خانق . وتفتت الصمت بيننا .

٢٢–١٢–١٩٩٠

* * *

النـــو

وينزل المطر وتتساقط قطراته السريعة على أوراق الشجر وعلى الارض محدثة جلبة وصخبا • أنز من مكاني الى حيث النافذة العريضة المغلقة اتحسس في الظلمة الستارة السوداء لسيكة المسمرة بالجدار ، التصق بها ، أبحث دون جدوى فى زواياها عن شق أو ثقب فيها ، كي أتنسم الرائحة التي احبهـا ، رائحة الارض المبللة بالمطر ، وتطوف أصابعي فى العتمة حول حافات الستارة ولكنها تتقاص بعد حين ، فاضرب بقبضتي عليها ، وعندما ينال مني التعب أخيرا ، أتراوى على الارض ، خائرة القوى وأجلس القرفصاء ثم أحتضن رأسي بين كفي ، اصيخ السمع لنشيج المطـر وأبكي •

كنت معه فى الهند ، وذات نهار ، كنت أرقبه من مكاني فى صالة الفندق • كان التردد باديا على ملامحه وهـو يتحدث مع موظفة الاستقبال وكنت متعبة بعـد عودتي من جولة طويلة في الاسواق القديمة المجاورة للقلعة الحمراء ، وكنت الى جانب تعبي ، أحس بعطش شديد ففي جولتي ، حرصت على الرغم من لعطش على عـدم ارواء ظمأي بتناول بعض انواع العصير التي كانت معروضة فى الدكاكين الصغيرة المنتشرة هناك ، وأجلت ذلك الى

حين عودتي . وهكذا كنت أحتسي عصير البرتقال من كأس كبيرة الحجم وعيناي مثبتتان عليه وهو فى حديثه مع موظفة الاستقبال الجميلة . وبعد مضي دقائق معدودات رأيته يدير عينيه فى المكان لتستقر نظراته عليَّ قبل ان يتوجه نحوي بخطوات بدت منتظمة ومعتدلة .

خيّل اليّ أنه كان متردداً ، على الرغم من ذلك الثبات الظاهري والابتسامة التي حاول أن يرسمها على شفتيه وهو يقول بصوت واضح النبرات :

ـ صباح الخير .

ـ وابتسمت وأنا أرد عليه قائلة :

ـ صباح الخير ، مع اننا فى عز الظهيرة .

ابتسم بصدق فى المرة الثانية وقال :

ـ سيدتي ، أعتقد انني قد نسيت مفتاح غرفتي هنا ، أقصد على هذه المنضدة الصغيرة امامك : عفواً ، كنت أجلس في مكانك هذا ، قبل قدومك . وربما ..

وهبطت نظراته نحو المائدة الصغيرة المدورة التي كانت أمامي ، فاضطررت الى رفع أكياس المشتريات التي كنت تبضعتها من السوق، وعند ذلك ، بدا لنا المفتاح محشوراً بين منفضة السجائر ومجلة سياحية . وقلت له :

ـ آسفة ، لم أنتبه لى وجـود المفتاح • كنت متعبة جدا فوضعت الاكياس على المنضدة من دون ان ألاحظ ما عليها •

بدا لي وجهه مشرقا بعد أن زالت عن ملامحه خطوط القلق والتوتر تناولت المفتاح الذي كان كبيرا بعض الشيء ومرتبطـا بسلسلة قصيرة تتدلى منها قطعة معدنية حفرت عليها صورة ملونة لطاووس زاهي الالوان وهو شعار الفندق • وقلت وأنا أناوله المفتاح :

ـ هذا هو طاووسك • انه يحمل رقم ٢٥٦ •

أجاب وهو يتناول من يدي :

ـ شعار جميل ، اليس كذلك ، ولكن ما رقم طاووسك • وتطلعت الى مفتاحي وأجبت : ٣٢٧
فقـال :

ـ معنى هذا ، انك فى الطابق الثاني و•••

ولكنه توقف عن الكلام فجأة ، تطلع فى وجهي لحظة وهو يضحك ليقول بعدها :

ـ هل تدرين ، لقد بدأنا الحديث قبل أن يتعرف احدنا على الآخر • لا يهم ، لنبدأ الآن وكأننا التقينا اللحظة • أجبت وأنا أمد يدي اليه مصافحة :

ـ كما تشاء ، اسمي سعد ابراهيم •

شدّ قامته باستقامة ، مد يده نحوي متلقيا كفي وهو يقول ببطء :

ـ وأنا هاني، احمد مصطفى . صاحب دار للنشر . انا سعيد بالتعرف عليك ، وفى الحقيقة ، أحس بالسعادة لأنني اضعت مفتاحي أو تركته هنا ولأنني وجدتك جالسة في هذا المكان بالذات دون غيره ، ولولا هذا لما تحدثنا اليوم . تصوري : ان هذه الرحلة السياحية تجمعنا منذ ثلاثة أيام ومع ذلك لم يتسن لأحدنا التعرف على الآخر . من الافضل أن تقيم شركات السياحة حفلا بسيطا في اليوم الاول من الرحلة لمجموعة المسافرين فى رحلاتها من اجل التعارف، بدلا من ان يبقى كل واحد من المجموعة يتبادل الابتسامات وكلمات المجاملة الخالية من المعنى .

وأجبت :

ـ ومع ذلك ستطاع كل واحد منا أن يستقر ضمن مجموعة صغيرة .

ـ مصادفة فقط ، وعلى المرء ان ينتقي اصدقاءه .

ـ أصدقاء ! (قلت بدهشة ثم أضفت) ولكننا في رحلة قصيرة والعلاقات فيها تكون طارئة تبدأ وتنتهي فى أيام معدودات.

ـ ربما ، ومع ذلك ، يقال الرفيــق قبل الطريق . ورحلة ايام معدودات قد تختزل زمنا طويلا من المعرفة .

واختزلنا الايام فعلا ، وجمعتنا علاقة حميمة . وفى اليوم الاخير من الرحلة وعندما كانت مجموعتنا تزور معبدا مؤلفا من طابقين : صعدت معه الى الطابق الثاني المزدحم بالصور والتماثيل والمتعبدين والراكعين والقائمين والعابق باريج عطور شرقية نوية

وعيدان البخور المشتعلة . وفي خلال تجوالنا بالمكان ، حانت مني التفاتة عبر النافذة الى مبنى مجاور ، مؤلف من ثلاثة طوابق ، مظلم تماما ، بدا لي وأنا أتامله ، أشبه بكتلة صلدة من العتمة ، لا يتخللها شعاع من الضوء . وعندما أنتبه أحد القائمين بشؤون المعبد الى اهتمامي البالغ بالمبنى ، قال لي :

ــ انها بناية تابعة للمعبد .

وقلت وأنا شبه مأخوذة :

ــ ولكنه مظلم تماما .

أجابني الرجل :

ــ انه هكذا باستمرار ، ويعيش فيه عدد من النساك الزاهدين الذين وهبوا حياتهم للتعبد فيه ، ومن شروطه العيش في عتمة تامة وعدم استخدام أية وسيلة من وسائل الانارة . وكما تلاحظين ، ان زجاج نوافذ المبنى قد صبغ باللون الاسود والستائر مصنوعة من قماش سميك جدا ، أسود بدوره ، لا يسمح لمرور أشعة الشمس من خلاله .

وعدت الى سؤاله وأنا في حالة الانبهار تلك

ــ وكم يبقون على هذا الحال ؟

ــ الامر متروك لهم . بعضهم ينذر البقاء أعواما والبعض الآخر ، يحدد سلفا الزمن الذي سيمضيه خلف هذه الجدران ، منعزلا عن الناس أياما معدودات او أسابيع او أشهر .

وتساءلت :

ـ وهل هم من الرجال فقط !

ـ لا ، الطابق الاول مخصص للخدمات والثاني للنساء والثالث للرجال .

ـ ولماذا ، أعني ، لماذا أختاروا العيش في الظلام !

قال :

ـ لانهم سئموا الحياة . في أعتقادهم ان في هذا النمط من العيش ، قهر للنوازع البشرية وقتلها تدريجيا .

قال الرجل ذلك وأبتعد عني تاركا أياي في لجة من الانفعالات والافكار . التفت نحو هاني لأقول :

ـ أنها حياة غريبة حقا .

أجابني :

ـ نعم ، قد يؤدي الحزن العميق الى اليأس والى حالة أنفصال عن الحياة وكل ما فيها .

ثم ابتسم وهو يضيف :

ـ وما وجه الغرابة . لو ارغمتني قوة ما على الافتراق عنك لأخترت حياة مثل هذه ذلك أفضل ، بالتأكيد ، من العيش بدونك . إن فقدتك ، ستحيط بي الظلمة من كل جانب حتى وان كنت أعيش في النور ، وأنت ؟

وقلت وانا اتطلع في عينيه اللتين رايت فيهما خط حياتي متهرجا :

ـ بالتأكيد ، وهل تعتقد انني قادرة على العيش من دونك •
أمسك كمي ، يضغط عليها ويقول :

ـ أحقا !

ـ بالتأكيد (قالتها من دون تردد) الحياة تعني ان نعيش معا • العتمة أهون عليَّ من الاحساس بفقدانك •

وابتعدنا عن تلك النافذة ولكن نظراتنا ظلت معلقة بذلك المبنى ونحن ننتقل من ركن في القاعة الى آخر ومشاهد الشموع والصور والتماثيل والنسوة الراكعات والرجال القاعدون ، المرتلون ورائحة البخور والعطور المركزة وطقطقة المسبحات ، كانت قد بدأت تخدر حواسي وتنقلني الى عوالم غامضة •

وبعد عودتنا الى بغداد وزواجنا ، لم ننس ، انا وهاني ، تلك الأمسية ، بل كنا نستعيد ذكرياتها مرارا ونتخيل كيفية الحياة في ذلك المبنى المعتم •

كنا نتذكرها معا ، ولكنني وبعد رحيله المفاجيء بعد ثلاثة أشهر من الزواج ، أخذت استعيدها وحدي • لا تفارق ذاكرتي كلماته ، وأنا جالسة في غرفة المعيشة الكبيرة ، ذات الارضية الرمادية الداكنة والتي كانت تتوزع فيها نباتات الظل الخضراء والارائك الخشبية السوداء ، المحفورة أطرافها بزهور دقيقة ، والصور المتعددة ، والتماثيل الهندية العاجية والقطع الخزفية الملونة • كنت أحتسي فناجين القهوة المرّة وأهدهد ذكرياتي المبعثرة في زوايا الماضي ومنعطفاته •

انقضت أمسيات كثيرة وأنا فى تلك الحالة ، لا اتزحزح فيها عن مكاني أرقب غروب الشمس واندثار آخر خيوط النـــور ، لتحيط بي ، بعدئذ ، العتمة التامة ، وليرتفع صوت هانيء صافيا يردد بهدوء تلك الكلمات التي اصبحت لكثرة ما رددتها ، أعرف كل نغمة من نغمات حروفها . (قد يؤدي الحـــزن العميـــق الى الانفصال عن الحياة ، ولو أرغمتني الحياة على الافتـــراق عنك لأخترت حياة مثل هذه) .

وفى ليلة من الليالي ، أتخذت قراري . تجولت فى غرف الدار وأخترت أخيرا ، غرفة النوم كي أستقر فيها ، كونها شبه منفصلة عن بقية أجزاء الدار وأيضا لوجود حمام ملحق بها يفضي الى ممـــر ضيق يؤدي الى باب يفصله عن غرفة المعيشة . وقلت لنفـسي ، انه بإمكان والدتي وشقيقتي المجيء للعيش معى وتحضير ما أحتاجه من طعام قليل ووضعه ، كما سأطلب منهما ، في الممـــر ليلا ، كي أنقله فيما بعد الى الغرفة .

وفى اليوم التالي ، واجهت بثبات العاصفة التي انفجرت فى وجهي وصمدت أمامي . بل أخذت ، غير مبالية بها ، أستعد لتنفيذ قراري لا بل تجربتي . فاخرجت من الغرفـــة كل مالا احتاجه وصبغت زجاج النافذة بدهـــان أسود وغطيته بمسامير قوية . وبعد ان أنجزت ما كنت فى حاجة اليه ، جلست فى عزلتي، أمتحن أرادتي فى الانقطاع عن العالم .

الايام الاولى التي مرت عليّ وأنا فى تلك الغرفة ، كانت

سهلة قياسا الى الايام التي جاءت بعدها وكنت فى خلالها حزينة ومهمومة ، أمضي جل الوقت جالسة على كرسي هزاز فى مواجهة النافذة السوداء . كنت خلال تلك الأيام ، مسلوبة الفكر تماما ، منفصلة العقل والحواس عن كل ما يحيط بي من همهمات أو ضجيج . لا أذكر أنني فى تلك المرحلة الاولى من عزلتي قد أحسست بمرور الزمن . فالزمن كان قد تداخل فى ذهني ولم يعد شيئا بالنسبة لي ، وأنا فى خلال قعدتي تلك ، او فى خلال سيري المتواصل فى الغرفة متوسطة الحجم ، التي كنت أتنقل بين جنباتها . وعندما كانت ساقاي تتيبسان خدرا ، من الجلوس على وتيرة واحدة ، أبدأ بممارسة بعض الحركات الرياضية الخفيفة لأعود بعدها الى الجلوس والقيام .

وهكذا تداخل الزمن وذابت الحدود بين الليل والنهار من دون ان أنتبه او أحاول أن انتبه لى ما يشير الى حاولهما فالحزن كان كبيرا الى الحد الذي سلبني الاحساس بمرور الوقت او التفكير بالحالة التي كنت فيها . حدث ذلك فى المرحلة الاولى التي لا أعرف كم من الأيام أحتوت ، ولكنني أدري ، أن التغيير اخذ يتسلل الى نفسي تدريجيا ، كما تنتشر خيوط الضوء فى الفجر ، وكان ذلك عندما أحسست فجأة ، وفى لحظة ما ، ان هواء الغرفة قد غدا ثقيلا ، لا بل عفنا .

وفى تلك الدقائق التي اجتزتها ، قمت من مكاني متوجهة نحو الحمام ، ثم الى الممر ، كي أعود بعدها الى مكاني والاحساس بثقل الهواء يلازمني ، لأتساءل بعدها ، هل تسلل العفن الى هواء

الغرفة فتتغير أم انني تغيرت ! وبعد مرور تلك الدقائق ، بدأ يزحف عليّ في الساعات التالية ، ولم أعد قادرة على البقاء ساكنة في حالة واحدة بعد ان حدث ذلك الثقب الصغير في العقل والحواس . وبدأت أتنقل من مكاني بين دقيقة وأخرى ، من الكرسي الى الفراش ومنه الى الحمام والى الممر ثم الى النافذة والى الكرسي ، أحس وكأن الستارة التي كانت قد أنسدلت امام عيني قد زالت وأن الشرنقة التي كانت تلفني والمجبولة من مشاعري تمزقت فجأة وبدأت عناصر الحياة تنفذ من شقوقها الى الروح . تيقظت حواسي وبدأت انتبه الى أصوات كنت قد غفلت عنها طويلا . أصوات تصك سمعي على الرغم من بعدها عني . صوت باب ينغلق ، صوت منبه سيارة ، صوت والدتي ، غناء أختي، صوت جرس هاتف يرن وأصوات أخرى متعددة المصادر ، كانت تغزو سمعي فأمدّ كفي ، اغطي بها أذني . اين كنت من قبل ولماذا كنت غافلة ، عن تلك الاصوات وهل أقدر حقا على سدّ أذني كي امنع سيل الاصوات من التسلل اليّ ؟

ولكن ، ها أنذا جالسة على الكرسي الهزاز ، أتأمل ماحولي، تتركز نظراتي على الستارة السوداء وأتساءل ، هل أنا في ليل أم في نهار ! أقوم من مكاني ، اقترب من الستارة التي كنت إخالها سميكة وداكنة تماما وأتوقف أمامها وتكاد نضراتي تثقبها ، فألمح نثاطا من ضياء رمادي باهت يبزغ فيها وأتساءل في أية ساعة أنا من ساعات اليوم . هل ان قرص الشمس قد بدأ رحلة الطلوع

أم أنه ينحـــدر في طريق المغيب أم تراه وقت الظهيرة والضيـــاء الساطع يشق طريقه نحو الارض عبر سماء ملبدة بالغيـــوم وان اجواء المدينة متشبعة بضباب كثيف •

أبتعد عن الستارة وقد اشتد توتري واتحرك في الغرفة ، مدركة ان أحاسيسي التي كانت قد خمدت بدأت تستيقظ مهيئة النفس لدورة جديدة من الزمن ، موصلة بين حالة الانقطاع التي كنت اخترتها وبين الحالة الجديدة التي أجد نفسي فيها • وتظل حركتي مستمرة ، أروح وأجيء أتطلع الامتار المعدودات ما بين جدار وجدار ، أسأل نفسي عن كنه المشاعر التي غدت تحاصرني وتلتف كما يلتف الخيط في مغزل دوار وأحس ان شيئا غامضا أخذ يتشكل في اعماقي لحظة بعد اخرى • فهل كان عفن الهواء الذي أنتبهت اليه فجأة هو السبب أم ان العفن كان قد زحف الى روحي وأعماقه وحفر فيه انفاقا ملتوية كما تفعل حشرة الارضة في الاماكن التي تحط عليها •

كانوا في ذلك المعبد المظلم يجيئون ويروحون مثلي ، خلف النوافذ السود ، كانت أشباح معتمة تروح وتجيء في حركة مستديمة مثل حركتي هذه • أتراهم كانوا ، آنذاك ، وعبر تلك الحركـــة المستديمة ، يواجهون أنفسهم ويحاسبونها ! لقد سألت ذلك الرجل الذي كان بمرافقتنا « كم يدوم انعزالهم » ، فقال ، « حســبما يشاؤون • الامر متوقف على قوة ارادة الفرد » •

وأغلق عيني اضغط عليهما باصابعي بقوة، يا الهي ، كن معي ،

دعني اجتاز «مرحلة الضعف هذه • وأجد ان نقاط الضوء الرمادية، التي ربما كنت قد تخيلتها ، تختفي من أمامي ولكنني أجد في الوقت نفسه أن غريزة السمع قد بدأت تشتد لدي ، وآخذ بالتمييز وبدقة غريبة ، تثير دهشتي بين الاصوات الصادرة من خلف الجدران • هذا هو خرير الماء في ساقية في الحديقة ، فهل ازهرت الورود التي زرعتها قبل زمن أم أنها اعمات ؟ وهل تحتفظ نباتات الظل بخضرتها أم انها تحتاج الى من ينقلها من مكانها المعتم الى حيث تتسرب اليها أشعة الشمس فى الساعات الاولى من النهار ، وهذا الحفيف الذي أسمعه بوضوح ، لابد أنه صادر من غرفة المعيشة ، فماذا تفعل والدتي فى هذه الساعة، وكيف حالها وكيف شقيقتي ! وتجتاحني مشاعر انسانية كنت قد نسيتها زمنا • اسحب كفي عن عيني وأسد بها أذني ، لا اريد ان أسمع صوتا يربطني بالخارج ويوصلني بالحياة • افتح عيني، تتناثر نقاط الضوء امامي، تدور نظراتي فى أرجاء الغرفة ، اتوقف عند الستارة السوداء وأجد أن نقاط الضوء تلك قد أتسعت فيها وأكاد أرى ، أم تراني اتخيل ، خيوط ضوء تمتد منها • لابد أنها الظهيرة وان الشمس مشرقة فى الخارج وان الازهار المبللة بالمطر تضيء بالجمال • أسد أذني ، افتح عيني ، أسدهما واستمع، أروح وأجيء، أقوم وأقعد والحياة تنفث انفاسها من حولي وتسحبني الى حركتها المتواصلة ، لا انقطع عن التفكير ، لا انقطع عن السؤال عن ماهية الحياة وكنه النور والظلام ، ولا أنقطع عن الحركة، ترفعني أحاسيس مختلفة ، وتحط بي، تعزلني وتوصلني،

انجذب اليها وأبتـرها وتتقاذفني المشاعر وتصطخب بعد سكينة وأحس بقوة جارفة تبسط جناحيها عليّ مثل طائر خرافي هائل ، تحاول سحبي بشدة الى الخارج والى ما يدور فيه • أحس بضيق في أنفاسي ، أستلقي على الفـراش ، آخذ نفسا عميقا ، الهـواء خانق لابد ان العاصفة التي هدأت قد تركت خلفها ذيـولا من الغبار • اغمض عيني ، اريد النوم ولكن الاسئلة تظل تحاصرني ، كما يحاصرني الصداع والهواء الخانق • ألجأ الى الوهم والى عوالم أخرى قد تساعدني على النوم ، واتخيل بستانا كبيرا يعج بالاشجار واتخيل مرجا لا حدود له تنتشر فيه زهور بيض وأتخيل سهلا أخضر واتخيل نفسي في كل تلك الاماكن وتخيل واتخيل ، ولكن الهواء يبقى خانقا والصداع يبقى يثقب رأسي • أدير عيني في ارجاء الغرفة أضيق مما كانت وأرى الستارة السوداء تحولت الى ستائر سود كثيرة ، أخذت تنسدل أمامي وترتفع الواحدة بعد الاخرى ولا تتوقف حركتها • أقوم من مكاني وجناحا الطائر الخرافي يدفعانني الى الامام أركض نحو النافـذة ، أضع وجهي على ستارتها ، أصيخ السمع • قطرات من المطر أخذت بالتساقط ، استنشق الهواء بعمق وأحس بشوق جارف الى رائحـة الارض المبللة بالمطر والى أناشيد الطبيعة والى مراقبة دورة الفصول وتعاقب الليل والنهار والى النور والظلام • أدور في الغرفة المظلمة وفجأة أتناول السكين وابدأ بتمزيق الستارة السوداء •

يوم خريفي

لم يكن ذلك الصباح فى ساعاته الاولى مختلفا عن صباحات الايام الاربعة التي كنت امضيتها فى الفندق الذي حللت فيه بعد وصولي بيروت ، المدينة التي كنت قد ابتعدت عنها طويلا ثم آثرت الاستقرار فيها بعد ان تقاعدت عن العمل . فقد استيقظت من النوم، كعادتي ، فى ساعة مبكرة وبعد ان اغتسلت وغيرت ملابسى تطلعت الى الشارع ، عبر زجاج الباب المؤدي الى الشرفة الصغيرة ووجدته خاليا من المارة والمحال الانيقة المتجاورة فيه مغلقة. فشارع (الحمرا) مازال على عادته يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل ويستيقظ من اليوم التالي متأخرا ولايدب فيه النشاط الا بعد الساعة العاشرة صباحا .

كان ذلك اليوم خريفيا مثاليا . غيوم سود متفرقة وأشعة الشمس الواهية تخترقها فى بعض اجزائها وتضفي عليها لونا براقا يكاد يكون فضيا . وما ان مضت دقائق على تأملي للشارع حتى بدأت قطرات المطر بالسقوط ، قطرات خفيفة رأيتها تهبط ببطء وتثاقل على سطح جهاز التبريد المثبت على أرضية الشرفة . فتحت الباب واخرجت كفي ، أتلقى بهما نثيث المطر وانا ساهمة وغارقة فى التفكير فيه . كنت ، فى الحقيقة ، مشبعة بذكراه منذ وصولى المدينة ، أتذكره فى شوارعها وفى مبانيها والتى التصقت ذكرياتى

عنها به ، دون ان أقدر على فصله عنها ، على الرغم من مرور خمسة وعشرين عاما على فراقنا .

كان ذلك اليوم البعيد في الذاكرة ، يوما خريفيا أيضا . ولكن الامطار كانت ، حينئذ ، تتساقط بقوة وغزارة وكان السماء كانت قد توقفت عن الهطول أعواما ولم تتجمع فيها جداول المطر الا في ذلك الصباح الذي كنت فيه قد أتفقت معه على السفر الى بعلبك ضمن رحلة طلابية كانت الكلية التي كان يكمل فيها دراسته العليا قد نظمتها . في هذا الفندق نفسه كنت اتأمل الشارع عبر زجاج الشرفة وأنا حائرة في كيفية الخروج والذهاب الى حيث كان ينتظرني في مقهى (الهورس شو) حيث كنا قد اتفقنا على تناول الافطار قبل ذهابنا الى الكلية والانضمام الى الرحلة . لم أفكر آنذاك ، كثيرا . لففت شعري بشال من الصوف وخرجت الى الشارع ، اقطع على قدمي المسافة القصيرة التي كانت تفصلني عن المقهى الذي وصلت اليه ، بعد دقائق ، وأنا مبللة تماما .

القطرات الخفيفة من مطر اليوم الآخر دفعتني الى التفكير في الخروج والسير دون تردد في الشارع . هبطت في الحال الى الطابق الارضي من الفندق وتوقفت كالمعتاد أمام مكتب الاستقبال من أجل تسليم مفتاح غرفتي ، لكنني وجدت المكان خاليا ، فاضطرني ذلك الى الانتظار والتشاغل بالنظر هنا وهناك . رأيت على المكتب الخالي ، سجل نزلاء الفندق مفتوحا والى جانبه مجموعة من الرسائل . وعندما طال انتظاري ، حانت مني التفاتة الى السجل المفتوح وبدأت ، دون اي غرض معين ، اقرأ اسماء النزلاء ، اسماء

لم تكن في تسلسلها تعني بالنسبة لي شيئا . وهكذا قرأت اسماء جورج ومتي وأحمد ووديع وبولاندا وانطوان واسامة . توقفت عن القراءة عند الاسم الاخير فاسمه يثير فى النفس المشاعر وخطر على بالي ، فى تلك اللحظة ، معرفة بقية اسم أسامة ذلك . مددت يدي الى السجل أدنيه مني ولأقرأ وقلبي يخفق بشدة اسم أسامة ابراهيم الفرحان ، غرفة رقم (٥٠٨) . توقفت هناك دقائق طويلة وقد شلني الارتباك . هل يعقل الامر ! أسامة ابراهيم الفرحان دون غيره ، يحل في الطابق الخامس من الفندق وأنا في الطابق الرابع منه ! وفى ارتباكي ذلك ، جاء موظف الاستقبال وسمعته يلقي علي تحية الصباح ويطلب مني الانتظار قليلا لأن هناك رسالة لي ، ورأيته يبحث عنها بين مجموعة الرسائل التي كانت مكدسة على المكتب ، وفى أضطرابي قلت له بانني فى عجلة أمري ولا بأس من أن استلم الرسالة بعد عودتي . اذ كنت قررت ان أمضي النهار فى البحث عن شقة مناسبة للايجار لاسكن فيها .

فى مقهى (الزورس‌شو) وفى ركننا المفضل كنت أجلس بعد قليل بأفكار مشوشة وكأنني كنت فى انتظاره من جديد . فالمفاجأة كانت كبيرة لم أستطع تحمل ثقلها بهدوء . وقد أثارت فى نفسي اسئلة كثيرة كانت قد ظلت حبيسة في داخلي زمنا طويلا . أتراني سأرى أسامة الفرحان اخيرا وبعد ان باعدتنا الحروب ؟ أتراه سيجيب عن الاسئلة التي ظلت معلقة بيننا والتي لم استطع تجاوزها! أتراني سأتعرف عليه فى الحال وما نوع التغييرات التي تركتها الاعوام على وجهه وقامته وروحه وصوته ! ما الذي جاء به الى

بيروت . هل انه في زيارة طارئة لها أم انه سيستقر فيها بعد ان هدأت أوجاعها كما سأفعل أنا . لابد أن بيروت قد هيجت ذكرياته كما فعلت معي . سأراه بالتأكيد . سأتصل به حال عودتي الى الفندق واتفق معه على اللقاء . سنتناول طعام الغداء معا .. هل نتناوله في الفندق كما أفعل منذ قدومي أم في مطعم (مرّوش) القريب منه ، كما اعتدنا من قبل . سأذهب بالتأكيد ، مبكرة عن الموعد ، قبل ساعة مثلا وأجلس على مائدة جانبية ، أستطيع منها مراقبة الداخلين الى المطعم ، سأعرفه بالتأكيد حالما يقتــرب من الباب ، وكيف لا أعرفه ، مازلت اذكر ملامحه بوضوح وكأنه لم يغب عني يوما . شعر أسود قصير ، بشرة سمراء وعينان سوداوان واسعتان وقامة طويلة ولكن ماذا عنه أتــراه سيتعرف عليّ في الحال كما سأفعل أنا !

توقفت لحظات عن التفكير ، تأملت فيها وجهي المرتسم على مراقبة الداخلين الى المطعــم ، سأعرفه بالتأكيد حالما يقترب من ووجه زرع فيه ذلك الصباح بعض الحيوية والامل . سيعرفني بالتأكيد ، سيتجه نحوي على الفور ويبادلني التحية ونجلس معا ، نتذكر ايامنا . هل سنتحدث بلا انقطاع وينساب بيننــا الكلام تلقائيا ، هادئا ، مثل مياه نهر حينا ومياه البحر الصاخب حينا آخر ، أم اننا سنخلد الى الصمت بعد تبادل الكلمات التقليدية الاولى ثم يروح كل واحد منا يبحث عن موضوع ما ليطرقه من أجل تبديد ثقل الصمت الذي سيخيم على مائدتنا في ذلك المطعم المزدحم أبدا بالرواد والذي تضج جنباته بالضحكات والأحاديث

والحركة ونكهة الشواء وأصناف المقبلات ! ولكن لماذا اجعل اللقاء به في ذلك المطعم ولماذا امظهيرة بالذات ! بامكاني ألانتظار حتى المساء .. ولابد من بضع ساعات تهدأ فيها انفعالاتي واسترد في خلالها شيئا من هدوئي والتفكير مليا بما سأرتدي وما أقوله . هذه مسألة مهمة كادت تغيب عن بالي . يجب أن أستعد تماما لهذا اللقاء . أن أتناول طعاما خفيفا وأن أنال قسطا من الراحة ، أن استطعت ، وان اختار ملابسي التي سأرتديها . بعناية بالتأكيد، سأعرج فى طريقي الى السوق كى أشتري بلوزة جديدة وعليّ ان لا أتردد فى اختيار لونها ، ستكون بيضاء ، نعم ، اللون الذي كان يفضل دائما أن يراني فيه ، وساضع على كتفي شالا من الصوف نعم ، من الأفضل أن اللقاء في المساء ، وفي ذلك المطعم المطل على البحر عند صخرة (الروشة) . سيكون الامر اكثر شاعرية ولن يبدو الصمت ، ان حل بيننا ، ثقيلا ، فمن الممكن عندئذ ان يتأمل كل واحد منا البحر والامواج المتلاطمة والظلمة والظلال المتحركة والانوار البعيدة المنعكسة على المياه وأضواء السيارات المارقة والتي لا تهدأ عن الحركة هناك . أعتقد أن الكلام بيننا لن يكون متعثرا ، بل سيكون دافئا ومنسابا . سأحكي له عن كل ما حدث لي وسأطلب منه أن يحدثني عما جرى له . مازلت اذكر نبرات صوته والعبارات الاثيرة لديه وضحكته وعطره وما يحب من الطعام وما يكره ، بل وأتذكر صدى أنفاسه وصمته ووقع خطواته. فهل ياترى قد بقيت تلك الامور على حالها أم انه قد تغير !

لابد من أن أراه اليوم وعليّ أن أبدد كل ما فى النفس من

مشاعر القلق والخوف والتي بدأت تساورني خشية اللقاء . بالتأكيد انه قد تغير كما تغيرت أنا . فلما أنبش الذكريات القديمة ولا ادعها مرتاحة حيثما هجعت واستقرت ولكن ، لماذا الخوف ؟ أنه مجرد لقاء وتبادل التحيات والدق برفق على نافذة الايام التي مضت ، دقات خفيفة لا تخدشها ولا تحرك الهواء المحبوس في داخلها ، فالعمر الذي أمضيته وحيدة ، لم يتحمل المزيد من العواصف المزمجرة والمشاعر التي تجتاح الروح بلا هوادة وما أثقل احاسيس الانتظار .

صوت فيروز في تلك الساعة ، أخذ يعلو وأغنيتها (سني عن سني) كانت قد أخذت تسحبني من دائرة التفكير التي كنت غارقة فيها . تطلعت الى ما حولي . المقهى كان قد بـدأ يمتلىء بروداه ودبت الحركة فيه . مددت يدي الى قهوتي الثانية التي كانت قد بردت واحتسيتها بسرعة وخرجت بعد أن دفعت حسابي لأسير على مهل في الشارع الذي كان قد استيقظ من سباته وبدأ يتثاءب .

في الثانية عشرة والنصف عدت الى الفندق ، أخذت المفتاح من موظف الاستقبال مع الرسالة التي وضعتها في حقيبتي . وفي المصعد خطر على بالي فجأة ان اضغط على زر الطابق الخامس وأن ابحث عن غرفته . قلت لنفسي ان الامر سهل للغاية وكل ما كنت احتاج اليه هو بعض الجرأة . ان ادق على بابه ، فقد يكون هناك . لكنني لم أفعل ، وتوقف المصعد بي ، كالمعتاد ، في الطابق الرابع . وبعد لحظات كنت في غرفتي ، أروح وأجيء فيها دون توقف بعد أن عاد القلق يجتاح كياني . ما فائدة رمي حجر في بركة قد توقفت المياه عن الجريان فيها ! أليس من الافضل تجاهل

المسألة والتصرف بتلقائية وترك أمر اللقاء للظروف والمصادفات ! فقد التقي به فى ساعة ما فى مطعم الفندق او فى المصعد او أمام مكتب الاستقبال . ولكنني ومع تسلسل افكاري تلك ، كنت أهيء ملابس الخروج . فرشت البلوزة البيضاء التي كنت اشتريتها على السرير وأخرجت الشال الاسود من خزانة الملابس ثم جلست في حيره من أمـــري . هل اتصـــل به هاتفيا أم ان عليّ الانتظار حتى العصر . قد يكون في هذه الساعة في الفندق ، في غرفته أو ربما أنه يتناول طعام الغداء في مطعم الطابق الارضي !

فى الساعة الثانية من بعد الظهر قررت الاتصال به . أمسكت بسماعة الهاتف وأدرت رقم غرفته . رن الجرس فى الغرفة التي ربما كانت تعلو غرفتي أو تبعد عنها بأمتار ، وظل يدق فيها دون أن يجيب أحد على ندائي . وضعت السماعة في مكانها وعندئذ وقعت عيناي على حقيبتي التي كنت قد وضعتها على مائدة صغيرة . تذكرت الرسالة ، اخرجتها من الحقيبة . فتحت المظروف الابيض وأخرجت منه دون اهتمام ورقة وبدأت أقرأ :

« عزيزتي

باختصار ، وصلت بيروت قبل ثلاثة أيام وليلة امس كنت في طريقي الى الخروج مع صديق لي عندما حدثت المفاجأة . فقد نودي علي اسمك من اجل مكالمة هاتفية ورأيتك . كنت في عجلة من أمري . لابد من أن نلتقي يوم غد ـ صباحا ـ قبل سفري . فالطائرة التي حجزت عليها ستغادر بيروت في الواحدة والنصف .

سأكون فى أنتظارك فى صالة الفندق من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة • لا أقدر على تأجيل السفر • لابد من رؤيتك • أكتب الرسالة ليلا ، بعد عودتي من موعد عمل وسأطلب من موظف الاستقبال تسليمها لك في ساعة مبكرة من صباح الغد •

تصوري ، كنا مساء جالسين على مائدتين متجاورتين فى الصالة ، طيلة ساعة كاملة ، دون أن ينتبه احدنا الى الآخر !

تحياتي حتى نلتقي

أسامة »

وكان المطر فى الخارج يزخ بقسوة مخيفة •

القصص التي تضمنتها المجموعة :

١ ــ جداول الصمت

٢ ــ يوم الجمعة

٣ ــ الازرق ــ الرمادي

٤ ــ مطر وقوس قزح

٥ ــ فى المرآة

٦ ــ آذار

٧ ــ سحر النظرة الأولى

٨ ــ بخور

٩ ــ غرباء فى الليل

١٠ ــ لعبة الصمت

١١ ــ النور

١٢ ــ يوم خريفي

• ❋ •

الفهرســـت



١ . فجر نهار وحشي ١٩٨٠ (رواية)
٢ ـ ممر الى الليل ١٩٨٨ (رواية)
٣ . مطر اسود .. مطر احمر ١٩٩٤ (رواية)

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
تصميم : مينا امير الحلو
الاشراف الفني : نهلة محمد عبد الوهاب
بغداد - ١٩٩٨
السعر ٤٠ دينار

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة